# نساء في الصمت

رواية

نفيسة السباعي

ترجمة: الزهرة رميج

## توطئة

لم تخرج الأغلبية الساحقة من الفتيات المغربيات اللواتي ولجن المدرسة قبيل الاستقلال، سالمات من فترة مراهقتهن. ذلك أن سلسلة من الجراح الجسدية و الصدمات النفسية واكبت خطواتهن الأولى في الحياة، فلم يكن لهن من حرية التصرف سوى المظهر. كانت المحرمات تقيد، بشكل صريح أو مبطن، أبسط حركاتهن. كانت أفكارهن و أجسادهن عرضة للكلام الجارح و الحركات المهينة و القوانين التي تدين أي سلوك متحرر يقمن به.

و كما هو الشأن بالنسبة للكثير من النساء الضعيفات و المتواريات عن الأعين، فقد ورثت كل من كاميليا و إيمي زهرة و أمينة قدرا هائلا من المحرمات في مجتمع يجد نفسه موزعا أكثر فأكثر، ما بين الحداثة و التقاليد القديمة. مجتمع لا تزال فيه العديد من النساء و الفتيات يعانين من الأمية، و يتعرضن للاستغلال و هدر الكرامة الإنسانية، و يعشن على هامش التطور. فتيات و نساء مكممات الأفواه من طرف فئة تحتل المناصب المريحة و تسن القوانين التي تفرضها على نصف سكان البلاد. هذا الوضع المغلف بالصمت، يجعل شريحة عريضة من الشباب تندفع وراء الخطابات المتطرفة التي تروجها و بكل براعة، حفنة من المرضى بهاجس السلطة. لقد أصبحت تلك الشعارات الخادعة، والمرفوضة كنمط للتفكير و السلوك، البديل الوحيد للجمود الذي تتخبط فيه الحكومة حاليا.
ما تعيشه حياة – خالة كاميليا – من واقع يومي، يؤكد المضايقات الممنهجة و المسكوت عنه المأساوي. لذلك، تريد من وراء سرد هذه الأحداث و تتبع هذه المسارات الخاصة، المختلفة و المتشابهة في آن، أن تخفف عن ابنة أختها ما تعانيه بسبب تجرئها على حب أحد تجار المخدرات، و خاصة في الوقت الذي كانت فيه كل الأنظار متجهة نحو شمال المغرب - تلك المنطقة التي تعاني من التهميش منذ عشرات السنين- و الذي كانت فيه تجارة الحشيش- و ما تزال- السبب في العديد من الآفات الاجتماعية التي تشل حركة البلاد.

غالبا ما تصطدم حياة المناضلة التي تهتم منذ زمن طويل بوضعية المرأة، بانتقادات أفراد عائلتها من جهة الأم التي تنتمي إلى شرفاء منطقة الشمال. فهؤلاء يقفون في وجه تفتح المرأة و انخراطها في الأنشطة الاجتماعية. و مع ذلك، و رغم انجذابها أكثر إلى أصولها المتجدرة في الجنوب، فإنها لا تكف عن زيارة أخوالها و خالاتها المقيمين بالشمال و الذين يتوفرون كلهم تقريبا على أسر مستقرة، و يتحصنون بالعادات و التقاليد، و بالمكانة التي يحضون بها من طرف سكان الحي.

مع مرور الزمن، أصبحت حياة كلما مرت بشارع إسبانيا بطنجة، إلا وتتحرك بداخلها مشاعر ذلك الإنسان المهمش الذي تسعى عائلتها بكل إصرار، أن تخلقه منها. غير أنها تظل  مع ذلك، متشربة بثقافة مسقط رأسها، ومحتفظة مثل غيرها، بنصيبها من إرث هذه المدينة التي تعتبر ملتقى أعظم الحضارات، و التي تركت فيها أرواح هائمة كثيرة، و مثقفون مشهورون، و فنانون حالمون، بعضا من ذواتهم.

ستظل حياة دائما تنتسب إلى مدينة طنجة و إلى شمال إفريقيا، كما ستظل تعتز بهذا الانتماء. لكن، أن تلوذ بالصمت بسبب هذا الانتماء، فذاك ما لم تعد قادرة على تحمله. رغم معاناتها من التقدم في السن، فإن اهتمامها المتزايد بوضعية النساء المستعبدات و المغلوبات على أمرهن لا ينحصر فقط في منطقة دون غيرها من المناطق. لقد قررت في السنوات الأخيرة أن تخصص ما يكفي من الوقت لتتأمل جزءا من الشهادات التي تراكمت لديها على امتداد مسيرتها الطويلة في العمل الجمعوي، قصد تسليط الضوء عليها. شهادات، غالبا ما تعكس واقعا مريرا و حياة لا تطاق. غير أن ذلك لا يمنع حياة من الاستمرار في الحلم برؤية البحر الأبيض المتوسط ينفتح من جديد على الحوار في بيئة تحترم فيها حقوق الإنسان.

و على امتداد كتابتها هذه، ستتسرب من ذاكرتها أحداث و أصوات أخرى في شكل مراسلات و بوح واعترافات و أحلام اليقظة... تود حياة أن تنسق أفكارها و أن تذهب بعيدا في بحثها، غير أن قلقها و استعجالها يدفعان بها إلى أن تفرغ و بشكل عشوائي، هذه الحمولة الكبيرة من الحيوات التي تنوء بحملها في عماقها منذ عشر سنوات طوال. لقد عاهدت نفسها أن تقوم بذلك من أجل كاميليا و من أجل نساء كثيرات فرضت عليهن لغة الصمت.

و هي بالتقائها بهؤلاء النساء، واستماعها إلى حكاياتهن تسعى بطريقتها الخاصة، إلى أن تجعل الصحراء تتحول إلى جنة خضراء، و تعيد رسم معالم الشعوب ذات التفكير الحر و زرع حدائق مرزوكة الخمسة بتتبعها آثار إيتري، رمز التجديد و الجرأة على الكلام في هذا الوقت الذي نقف فيه على عتبة الألفية الثالثة.

# شاطئ المنسيين

- آلو لالا حياة، أنا إيتري. كيف حالك ؟ أنا الآن أكلمك من الريسوني.
- يا له من خبر سار يا صديقتي ! متى ستأتين عندنا ؟ سألتها حياة لاهثة.
- في أواسط شهر شتنبر. سأذهب معكن إلى تيزرو، هذا مؤكد. لقد حدثتني كل من مون و غيثة عن مشروع الفيلم الوثائقي. إنه أمر رائع ! منذ سنوات و أنا أنتظر هذا التحقيق...

انقطعت المكالمة فجأة. سمعت حياة صفيرا ميكانيكيا في آخر الخط، ثم لا شيء.

أزندي. صيف 1995.

بدأت القرية الصغيرة البيضاء تستيقظ بكل هدوء، على عتبة آثار دار السلطان. تعلقت نظرات حياة بأوراق شجرة التين التي تتحرك فوق رأسها. يصبح لون العروق الدقيقة فاتحا عندما يصل الحواشي المطرزة لهذه الأوراق المتمايلة فوق الجذوع القديمة ذات العقد المتعددة و المنحنية نحو الأرض. في منحدر الساحة تبرز بشكل خجول، عناقيد العنب الأولى من بين أزهار الغرنوقي. و من الخندق الواقع أسفل الوادي الصغير المحشور بين جبلين، تنفلت أصوات النساء محلقة بعيدا عن القرية.

في فصل الشتاء من كل سنة، تغمر القرية مياه طوفانية تصيب الكبار و الصغار بالهلع، و تجعلهم يشعرون بالعجز و يستسلمون لقدرهم و هم يرون منازلهم تنهار عن آخرها. فالأسطورة التي يرويها الشيوخ تُنسب لهذه القوة الطبيعية المتفجرة من أعماق الأرض، قدرات شريرة. لذلك، لم يكن في قديم الزمان، أي واحد من سكان هذه القرية يجرؤ على المغامرة بالذهاب ليلا إلى الوادي. و حتى اليوم، يكفي أن تنطق الأم أمام ابنها المشاغب اسم خندق "عين الدويدة" ليعود الطفل إلى هدوئه و طاعته. أما بلاّلو، فإنه ما إن يقترب في فصل الصيف، من الوادي الجاف الملتف حول الصخور ليجتازه، حتى يزيد من حدة ضربه لحماره المسكين.

تجد حياة نفسها مشدودة إلى الأصوات اليومية التي تخترق حقول الذرة و قمم الجبال، لتصل إلى قطيع الماعز الذي يمتلكه بلالو و الذي يرعى بكل حرية، في سفح الجبل. و بلالو هذا الذي يطلقون عليه اسم لحلو، رجل هزيل ظاهريا، لكنه يمتلك طاقة هائلة. فهو يزيل الأعشاب الطفيلية و يحرث الأرض على مدار السنة. مع مرور الزمن، أصبح العدو اللدود للأطفال الذين يطاردهم كلما وجدهم يقطفون الثمار الصفراء لأشجار النخيل القزمة. تجده - مثل سائر سكان القرية - يراقب الآخرين و يتنصت عليهم و يروج الإشاعات و يحتاط من كل شيء غريب و مناف للعادات المحلية. يعتبر نفسه صاحب سلطة بدون منازع، فيما يعتقد أنه منطقة نفوذه الطبيعي. و يتطاول، بدون حياء، على أراضي الآخرين و حياتهم الخاصة. أحيانا، تذكر تصرفات بلالو هذه، حياة بطفولتها المبكرة. في الحقل الزاخر بالفواكه التي يمنعهم والدها من الاقتراب منها، كانت نظرات العمال تبدو هاربة و وجوههم ضبابية و ملامستهم لها غريبة. الشيء الوحيد الذي تحتفظ به واضحا من هذه المرحلة البعيدة هو اقتلاع ظفر إبهامها و هي تجري هاربة، لمدة طويلة، عبر

الأشواك و نبات القراص. كان ذلك من الأمور الرهيبة المفزعة التي لا يمكن للأطفال الصغار الضعفاء الحديث عنها أمام أهاليهم. سنوات طويلة بعد ذلك، ستختار حياة متحدية الجميع، وسيلتها الخاصة لتخرج شيئا فشيئا تلك الأسرار الصغيرة الثاوية في أعماق الذاكرة. ستصبح مدرسة و ستتسلح بالكلمات لفضح ما يريد أقرباؤها السكوت عنه.

عندما تحرش ابن الجيران بابنتها مون، و هي طفلة صغيرة، مرغما إياها على إزالة تبانها، قررت أن تزيح الستار عن تلك الأشياء المؤلمة التي لا يتجرأ الإنسان على البوح بها عندما يكون طفلا صغيرا لا حول له و لا قوة أمام سلطة الكبار. و طبعا، حكمت عليها العائلة بسبب ذلك، بالطرد من عالم النساء العفيفات ذوات السلوك المثالي.

في جماعة اغمارة هذه، الكل يخشى الكل. و الجميع ينتظر من الدولة أن تتكفل بكل شيء. الظاهر، أن هناك قضية ما غامضة تتعلق بوثائق محتجزة من طرف السلطة أو وزير الأوقاف و الشؤون الإسلامية توجب إعفاء سكان القرية من كل الضرائب و الرسوم نظرا لمشاركتهم في صد هجوم الأعداء البرتغاليين و الإسبان أيام الاستعمار. و أنه بسبب هذه القضية، لا يزال الغوماريون ينتظرون "مستحقاتهم" . لذلك، لا يتوقفون عن التذمر و الشكوى من المصير الذي آلوا إليه، معتبرين أنفسهم أكبر المنسيين على وجه الأرض من طرف الدولة. و لكنهم مع ذلك، لا ييأسون من رحمة الله. هكذا يقولون و هم يتنهدون. أما بالنسبة لما تقوم به الجمعيات من مبادرات، فلا شيء من ذلك يحظى برضاهم.

يوجد في هذه القرية، مسجد بني في القرن الخامس عشر في عهد المرينيين. و هو الذي غالبا ما يجلب إليها الباحثين الأجانب - و خاصة الإسبان - الذين يستغربون من لامبالاة المسؤولين بهذا الإرث التاريخي الهام. لقد حاولت حياة تنبيه وزارة الأوقاف و وزارة الثقافة إلى التلف الذي تتعرض له هذه المعلمة التاريخية كما نبهت مصالح الجماعة القروية إلى خطورة التكاثر المهول للبناء العشوائي الذي يجتاح هذا الشاطئ الجميل للبحر البيض المتوسط. و لكن بدون جدوى ! فالمضاربات آخذة طريقها، و مشاريع الحفاظ على البيئة في هذه المنطقة تنام داخل أدراج المكاتب. عما قريب، سيتساءل الإنسان و هو يمر عبر هذه المباني، ما إن كان فعلا على شاطئ البحر. أحست حياة و هي تفكر في بناتها و خاصة في ابنها، بإحساس مبهم يجتاحها. أحست بذلك الألم المفاجئ ينفجر من جديد في قلبها. ألم منسي، مآسي شخصية مقبورة ظاهريا. أحست فجأة، أن ماضيها الخاص يطاردها. المكالمة القصيرة التي توصلت بها من إيتري أعادتها إلى واقع ابنة أختها الشابة كامليا. ذلك أن حياة تعيش مأساة اعتقال كاميليا كما لو كانت مأساتها الشخصية. مشاكل الآخرين تؤلمها أشد الألم: النساء المطلقات... نساء دور الصفيح... الفتيات الأمهات... هذا الجيل الجديد من الشباب العاطل من أصحاب الشهادات العليا... ثم هؤلاء النساء الشجاعات المقيمات في المناطق القروية النائية، اللواتي صادفتهن خلال نشاطها الجمعوي، منذ سنوات عديدة...

الهواء في ظل شجرة التين، ساخن هذا الصباح أيضا. غناء الصرار الصاخب يمتزج مع حفيف الأشجار. الهضاب و الجبال المحصودة تكتسي حلتها الصفراء الصيفية. سمعت حياة صوت قارب صيد يأتي من خلف القلعة البرتغالية، حيث يسرع الأطفال إلى رمي الشباك لاصطياد الأسماك التائهة على حافة الشاطئ. تخيلت

حفيدتها الصغيرة تطلق ضحكاتها الصاخبة و هي تلهو فوق شاطئ أمسا على بعد عدة منعطفات من القرية البيضاء. كانت بالكاد تبلغ تسع سنوات من عمرها. اليوم، يتوجب على حياة أن تستمر في الكتابة بالرغم من الواقع المؤلم الذي ينقبض له قلبها و الذي تشعر أنه يفتت دائما ساقها اليمنى.
تتمنى أن تنعزل بعيدا عن ضوضاء المدينة. تريد أن تختلي بنفسها في جو من السكينة و الهدوء. الفتاة الصغيرة ليست بعيدة عنها. هي حاضرة دائما في ذهنها. تستطيع أن تسمع كلماتها و أن تتخيل نقاشهما. لا يفصل بين الخالة و ابنة أختها سوى ستون كيلومترا. أرادت حياة أن تحضر جدة الفتاة لتعيش بقربها في هذه القرية الهادئة لأنها تشعر دائما، بالراحة مع هذه الخالة التي تسكن بمدينة تطوان، و التي تتوفر على إحساس مرهف. تطلق العنان لدموعها، لكنها سرعان ما تنتفض في مكانها. لا، مستحيل ! المأساة التي تتخبطان فيها معا في هذا الوقت بالذات، أقوى من أي انفعال تحدثه اللقاءات العادية.
استحضرت حياة من جديد والديْ كاميليا. مع تعاقب الشهور أصبح ظهر الأب مقوسا و جسد الأم التي اضطرت إلى وضع الحجاب و السير جنب الحائط، نحيلا. أدركت حياة مرارة الواقع الذي تعيشه عائلتها بالشمال و المرحلة العصيبة التي تمر بها، و الألم الذي تنوء بحمله كل من الأم و الجدة بسبب احتجاز ابنتهما العزيزة في السجن المدني بتطوان.

في الصباح الباكر، تتسكع حياة لبضع ساعات، في الحقول المحيطة بالمنزل. تلتفت نحو الجبل و هي تسمع وقع خطوات النساء اللواتي تنحني ظهورهن تحت وطأة حزم الحطب التي يحملنها.

أدغال بشرية، أدغال متحركة،
منزلقة فوق الساحة الصخرية،
تغني بكل فرح.
نساء سجينات التقاليد القديمة.
نساء شجاعات، تكتمن الآهات
في أعماق أعماقهن.
ترى، هل سيجدن ذات يوم،
ما يكفي من الوقت و القوة
لمقاومة صروف الحياة،
و لامبالاة أصحاب القرارات؟

ألقت إحداهن التحية الصباحية على حياة و دعتها إلى المجيء لتناول شاي ما بعد الظهيرة معها. شكرتها حياة بحركة من يدها، ثم عادت إلى وحدتها من جديد، و إلى التفكير في ابنها الذي يقضي عطلته الصيفية في إحدى المخيمات بفرنسا. ترى، هل كان تسامحها معه يفوق الحد ؟ هل كان حضورها إلى جانبه غير كاف ؟ ما أبعد ذلك الزمن الذي كان فيه حسن يتدحرج بسرعة، فوق هذه المنحدرات الحادة. كانت لامبالاته تشعرها بالسعادة. تراه و هو يجري في اتجاه الزاوية عبر البيادر الذهبية حيث يدرس القمح، فقد كان الخير في تلك السنوات، يعم فضاء "السواني". تراه يسبح في منتصف النهار، مع أصدقائه في المياه الزرقاء، و في

المساء يلعب معهم لعبة الورق في المقهى. طبع ابنها الممتع يثلج صدرها. إنه حقا طفل متوازن و سعيد ! كل سنة يتنفس حسن، رفقة أصدقاء الطفولة، هواء جبال هذا الجزء من أصوله التي تمتد حتى هاهنا.
من خلال ابنها هذا، يتراءى لحياة جدها من الأم راكبا بغلته، عابرا حقول بني يسف في اتجاه بني عروس، قاطعا الوديان الجافة المليئة بالحجارة من أجل استكمال تعليمه الديني بالمدينة. " لن ينسى ابني أبدا، هذه القرية الصغيرة و لا أصدقاء الطفولة". قالت حياة لنفسها. تتمنى من كل أعماقها، أن يخرج ابنها من مرحلة المراهقة غنيا بهويته المزدوجة. ذلك أن نصفه الثاني آت من بعيد، من الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، ليذوب في أرض أجداده. غير أن سؤالا كان يؤرقها: " كيف يتمكن هذا المراهق "الغريب في بلده الأصلي"، أن يدبر هذا الإرث المزدوج حتى بلوغه الثامنة عشرة؟ "

تنبش حياة في ماضيها الخاص، محاولة استرجاع الذكريات الأكثر تأثيرا في مراهقتها. أول ما يبرز أمامها قائمة الكتب التي قرأتها، و التي لا تزال متأثرة بها حتى الآن. شغفها بالمطالعة هو الذي دفعها إلى الانفتاح، تدريجيا، على العالم في ظل بيئة مناهضة للحداثة. إنها أول فتاة في العائلة تلج المدرسة بفضل شجاعة أمها. ستلتحق - و بأعجوبة - بأول فوج للفتيات بالإعدادية المختلطة بطنجة. كان عليها أن تتعلم باكرا، كيف تدافع عن نفسها وسط جماعة من الشبان المتعجرفين. تستند في ذلك إلى شخصيات نموذجية تأثرت بها مثل جورج ساند، ألبير كامو، كوليت، سيمون دي بوفوار، مالرو، ستندال، ليفي ستراوس و طه حسين و نجيب محفوظ الذين سيقتحمان حياتها بشكل عشوائي. فيما بعد، ستجد نفسها تنبهر بممثلي السينما أمثال: جيرار فيليب، جولي كريستي، عمر الشريف، فاتن حمامة، أودري هيبورن، بيتر أوتول، الذين ستكتشفهم مع مرور السنين. و سيأتي فنانون آخرون فيما بعد، ليدخلوا السعادة إلى عالم هذه الابنة الوحيدة. ستنبهر بشخصيات رافيل، ألبينوني، فيفالدي، بريل، فيروز، فريد الأطرش، عبد الوهاب، بياف، باربارا. ستظل هذه الأسماء تسحرها إلى أن يأتي اليوم الذي ستعجب فيه بأغاني الأطلس إعجابا سيتزايد مع أسفارها المتعددة....

استيقظت حياة، هذا الصباح في المنزل الذي تظلله شجرة التين، و هي تشعر برأسها يغلي من شدة التفكير في كاميليا و زميلاتها السيئات الحظ اللواتي جمعتهن نفس الزنزانة، و ربطت بينهن نفس الوضعية الصعبة التي لا تحتمل: الفقر و الجهل و خاصة، الخوف من الكلام. بالنسبة لمعظم هؤلاء الفتيات المحرومات من الرعاية، لم يكن الوقوع في حب رجل "احشايشي" تنبعث منه رائحة الكيف، أمرا غريبا. "فهذه الرائحة مثلها مثل رائحة السيجارة أو السيجار. رائحة شبيهة بروائح أخرى كثيرة قوية و حامضة. و لا شيء من ذلك يستدعي كل هذه المشاكل !" هكذا يحتج بعض الذين ينتمون إلى "الوسط". يهيئ لحياة أن صوت تلك المراهقة يصلها من داخل الزنزانة التي تقبع فيها ليذكرها بعادات "الباريو".

" - خالتي، لقد كنت طيلة مرحلة طفولتي، أمر على الشباب وبالخصوص على "الشيوخ المتقاعدين" من الجيش الإسباني، و هم مستندون إلى جدار المسجد و "السبسي" بين أصابعهم. لم يكن ما يدخنونه ياسمينا، أ ليس كذلك؟
- بلى، يا ابنتي. و لكن الناس لا يغفرون الخطأ. و أنت تجرأت على الوقوع في حب تاجر مخدرات !"
حدث ذات يوم، أن اجتازت حياة القبو المظلم الذي تنبعث منه رائحة نتنة داخل المحكمة التي يتوقف عليها مصير النساء التائهات المعتقلات أثناء حملات الشرطة الليلية، و على قرارات وكيل النائب العام المتورط في الفساد حتى النخاع. تقيأت حياة كل ما في جوفها و هي تقسم أن تقدم شهادتها لصالح هؤلاء النساء اللواتي أحببن رجالهن حبا يفوق الوصف، و اللواتي يعاملن معاملة الحيوانات و يتعرضن للسب و البصق و الركل من طرف "حراس العدالة" حتى قبل التأكد من إدانتهن.
تعرف حياة كذلك، عن طريق أم كاميليا، أن الكثير من المعتقلات لا يزورهن أحد و لا يتوصلن بسلال ممتلئة. هؤلاء الفتيات المسكينات يعشن بدون أمل. شفاههن مثقلة بالكلمات النابية و مخالبهن محملة بالعدوانية.

" أعرف يا كاميليا، أن قفة مليئة تأتي من الخارج، تعتبر شيئا مهما جدا داخل السجن. إنها تحمل معها لحظات من الحنان و ألوانا من الحياة الخارجية و أنغاما من الموسيقى التي تصدح في الأسواق. القفة تثير الطمع و الحسد.... و تمنح صاحبها امتيازات كثيرة. أعرف ذلك. و أعرف أنك كريمة مثل أمك. يداك مبسوطتان لدرجة اللجوء إلى الدين. كرم متأصل كان قبل ولادتك بهولندا، ولا يزال. ترى، ما هي الذكريات التي تحتفظين بها من ذلك البلد النظيف و المنظم حيث يعامل المنحرفون و المدمنون بطريقة أكثر إنسانية ؟ لماذا عدتم إلى بلادكم و إلى هذا الحي البئيس؟ كان بإمكانك أن تعيشي هناك، طفولة فتاة مهاجرة. أن تذهبي إلى المدرسة. أن تحصلي على تكوين مهني و على زوج لطيف من نفس الحي الذي تسكنينه. كنت سأراك كل صيف تزورين المغرب، صحبة طفل أو طفلين أو ثلاثة، و أنت تشعرين بالفخر و الاعتزاز. و كانت بناتي سيركبن أحيانا، القطار من محطة الشمال لرؤيتك.
هناك، كانت أمك تحب صرف النقود - التي يعاني والدك، العامل البسيط، الأمرين للحصول عليها. في فترة تخفيضات الأسعار، تُقبل بافتتان شديد، على شراء علب الماكياج و الفساتين و التحف الرخيصة التي تقدمها هدايا لجاراتها عندما تعود إلى البلد!
آه يا كاميليا، لماذا؟ لماذا هذه العودة المشؤومة؟
و مع ذلك، فأنا أتفهم الأمر.
أتفهم حنينهم إلى عيد الأضحى، و إلى السردين المشرمل المقلي، و إلى حريرة رمضان. أتفهم ارتباط أمك بالحي الذي عاشت فيه و بصديقاتها. أتفهم عشقها لأغاني و رقصات بلادها. بدون هذه الأشياء، كانت تحس بالغربة و بجذورها مقتلعة. لم تستطع تحمل ذلك الفراق الطويل، و ذلك الفطام المفروض عليها.
سآتي في الموعد يا كاميليا. سآتي محملة فقط، بقوة الكلمة. أقسم أني سأفعل رغم احتجاجات العائلة. فبناتي يساندنني، و زوجي يترك لي حرية القرار.

بفضل هذه الشهادة، آمل أن يصبح عددنا كثيرا، لنلتف جميعا حولك وأنت على عتبة حياتك الجديدة. نحاول تجنيبك الوحدة القاتلة و الكلمات الجارحة. في انتظار ذلك، عليك يا كاميليا، أن تخرجي الأدران التي بداخلك. اعترفي بحبك له. حبك لذلك الرجل الذي اغتصب براءتك. فذاك هو ثمن تحررك. لقد سمعت مؤخرا، أنه هرب بمساعدة شخصية غامضة. هناك من يقول إنه في إسبانيا، و من يقول في إيطاليا. و لم لا ؟ لقد جمع ما يكفي من المال على حساب الأبرياء، ليعيش حياة النعيم في إسبانيا أو إيطاليا أو في أي مكان آخر من العالم. أما أنت، فسيضيع شبابك بين الجدران العالية. قد يحدث أن تناديه بما أوتيت من قوة، في أحلامك الليلية و أن تستمتعي بذكريات اللحظات الحميمية، ولكن، ما إن تفتحي عينيك حتى تفاجئين بنفسك ترتعشين بين يدي حارسة السجن !
قد يتزوج هناك في الأندلس، امرأة قسطلانية يهديه والدها الذي أقعدته آلام المفاصل، قطعة أرض تقع على منحدر جبل مغمور بالشمس، فيستأنف من جديد، تكوين عصابته المافيوزية، أو ينتهي به المطاف جثة هامدة داخل حي من أحياء المرسى البئيسة.
كم هما رائعان والداك يا كاميليا ! لم يستسلما أبدا. كم تعرضا للإهانة و الابتزاز من طرف محامين دنيئين و قضاة لا يقلون تعفنا عن الرجل الذي أحببته. يطالبونهما دائما، بغلاف ممتلئ أكثر فأكثر، ثم يتبخرون في أروقة المحاكم دون أن يتركوا أي عنوان. "ابحثوا عن أشخاص يحتلون مكانة عالية". ينصح الأقرباء والديك. همسوا اسمي بخجل. إنهم مخطئون يا كاميليا. فأنا لا أحتل أية مكانة رفيعة. لا أملك سوى كلمات لغة أخرى على صفحة بيضاء. و لكننا معا، نتقاسم جزءا من حديقتك السرية التي أهديتني إياها دون وعي منك. اللوحة أمامي. أستمد قوتي من صيحتك المطرزة باللون البنفسجي . يا إلهي، كم هو رائع عملك هذا الذي أشادت به مؤسسة السجن و عرض بالمعارض و علق عليه الصحفيون. تداول أفراد العائلة الجريدة فيما بينهم، ثم لاذوا بالصمت. ثقي بي يا ابنتي، ستطهرين جسدك من رجس ذلك الرجل. ستنتصرين بفضل شجاعتك. تكلمي. اكشفي سرك للذين ينظرون إليك باحتقار. أزيلي الستار عن هذه القضية المظلمة التي جعلت منك ضحية أخرى من ضحايا ما يسمى "بتطهير الشمال". ستخرجين ناصعة البياض من هذه الأزمة الفظيعة. و إلى ذلك الحين، سنظل نستقبل نساء أخريات يائسات. أنا في حاجة إليك يا كاميليا، لأفي بوعدي، و أفهم أخطائي الشخصية، على الأقل من أجل الكتابة.

# نعناع الريف

ولدت كاميليا ذات يوم ممطر من شهر أكتوبر، بمدينة بريدا بهولندا. ثم استيقظت سنوات بعد ذلك، في الحي الشعبي الذي يقطنه والداها بالمغرب. ستعرف منذ الصغر، أن كل سكان الحي يخشون كلمة سجن بسبب نبتة الحشيش التي تؤرق لياليهم. و مع ذلك، فإن منازلهم تظل مفتوحة في وجه أبنائهم ضحايا هذه الآفة التي تعصف أكثر فأكثر، بشباب مدينة تطوان. في العديد من الأحياء، و داخل

العائلات أنفسها، تروج هذه النبتة التي يتم تيبيسها، و فرمها، و تقسيمها، والتفاوض بشأنها، و بيعها و بالطبع، تدخينها. في المقاهي، ينتقل "السبسي" من يد ليد كما تنتقل كؤوس الشاي بالنعناع و الشيبة دون أن يعترض أحد على ذلك. و الأطفال الصغار منذ الرابعة و الخامسة من عمرهم و هم يستنشقون رائحة "الكيف" الحادة. يتعرفون على رائحتها قبل رائحة الأزهار التي تنبت على حافة وادي " لمحنش".

رائحة هذه النبتة التي أدخلها خال كاميليا إلى المنزل، رافقتها طيلة مرحلة الطفولة و المراهقة. كأنما رضعتها من ثدي أمها. ظل هذا النمط من الحياة يبدو طبيعيا في عين كاميليا، إلى أن جاء اليوم الذي قرر فيه الأب طرد ابنه البكر من البيت. كل العائلة عارضت هذا القرار، مذكرة إياه بأن الجميع في هذا الحي يساند بعضه البعض من أجل مساعدة الشباب الذي يمر بمرحلة التعلم هذه. " فالرجال يتعلمون عن طريق الأخطاء التي يرتكبونها في شبابهم و بالخصوص، بفضل مساعدة عائلاتهم." قال أحد أعمامه الكبار.

فاضطر الأب إلى التراجع عن قراره، لكنه هاجر من جديد إلى البلدان المنخفضة ليعمل هناك، كعامل يدوي. سيظل يكدح طيلة عشر سنوات، و سيشتري بما وفره من المال بيتا في نفس هذا الحي بعدما قرر العودة نهائيا إلى بلاده، لأن زوجته الغارقة في جيش من الأولاد، لم تعد قادرة على تحمل مسؤوليتهم وحدها و لا بقاءه في الخارج.

يا للأب المسكين ! حياته كلها عبارة عن سلسة من التضحيات من أجل راحة أسرته. لقد اضطر إلى الإبحار لبضع سنوات أخرى، في سفينة صيد إسبانية في مياه طاراغونا، بسبب تكاثر الديون و مضايقات زوجته و أبنائه. و مثل الكثير من الصيادين الآخرين الذين يسكنون نفس الحي، لم يكن الأب يعود إلى البيت سوى مرة واحدة كل ستة أشهر، ليؤدي الديون التي تراكمها عليه أسرته، و يبذر بذرته مرة أخرى، في رحم زوجته، ثم يعود من جديد إلى البحر و الوحدة. هكذا، يجد الأطفال المهملون في الشارع، أنفسهم لا يعرفون سوى قانون واحد هو قانون الأكثر خبثا و الأكثر قدرة على تخليص نفسه من أية ورطة.

لم يغادر أخ كاميليا الأكبر أبدا، بيت الأسرة. حتى اليوم، و هو متزوج و أب لأربعة أبناء، لا يزال يعيش على نفقة والديه. "هذا ما يحتمه التكافل الأسري" ! كما يقول دائما سكان هذا الحي.

لم تشعر كاميليا أبدا، طيلة مرحلة المراهقة، بالارتياح في هذا الحي. لقد انتهى بها المطاف إلى التأكد من أن أخاها الأكبر و خالها ينتميان إلى فئة اجتماعية غير مرغوب فيها خارج الحي الذي تنتمي هي أيضا إليه. كان واضحا أن الكثير من الأطفال يتركون المدرسة و يقضون يومهم في المقهى يلعبون لعبة الدومينو. أما أخوها الأصغر صلاح، فقد كان مختلفا. كان يدور في رأسه الصغير حلم آخر، ألا و هو عبور المضيق ذات يوم، مثل والده. و قد تحقق حلمه هذا مجنبا إياه لعنة الحي و جحيم مخدراته.

" آه، يا عزيزتي كاميليا، ما أبعد زمن اللامبالاة ! " غمغمت حياة و هي تزيل الأوراق الميتة للنباتات المزروعة على جانب الممر المنحدر الذي يؤدي إلى المنزل الأبيض... " الزمن الذي كانت فيه جدتك " الخالة" تغدق عليك حنانها أثناء إقامة أمك الطويلة في المستشفى..."

صباح هذا اليوم من أيام نهاية الصيف، كانت الخالة منهمكة في إعداد الطواجن بالمطبخ و الدموع تسيل فوق خديها. طلبت من الطفلة الصغيرة أن تكون لطيفة، لأنهم سيذهبون للقيام بجولة في البادية. في السن الثانية عشرة، كل الطفلات في العالم يشعرن بالسعادة و هن يركبن سيارة الأجرة مع الكبار. أجلست الجدة الطفلة الصغيرة في حجرها. امتدت أيدي الركاب تلامس وجنتيها و شعرها. تنهدت قروية عجوز و هي تتمنى طول العمر لأم هذه الصغيرة. أثارت هذه القروية أعصاب كاميليا بتأسفها على مصيرها. أحست بالغضب تجاه جدتها التي لا تجد حرجا في الكشف عن مرض أمها أمام هؤلاء الغرباء. كانت سيارة الأجرة و هي تتجه إلى شفشاون، تتسلق هضابا تغطيها أشجار الصبار و التين و الزيتون. توقفت أخيرا، أمام بوابة كبيرة. لم تكن البناية غريبة عن كاميليا. فهي تشبه نوعا ما، المستوصف الإسباني الذي يوجد في الحي الذي تسكن فيه. كان في استقبال الزوار أمام البناية، ثلاث راهبات إسبانيات تعلو الابتسامة شفاههن. في الساحة، يجلس فوق كراسي خشبية بيضاء، مرضى كثيرون ينتظرون في صمت. يذرع آخرون الممرات النظيفة، و أبصارهم منخفضة و أنفاسهم متقطعة. بدت الجدران المتآكلة أكثر صلابة من هذه الأجساد العليلة الهزيلة.
في أعلى سلم الطابق الأول، كانت الأم بلباس نومها الأزرق و بلونها الممتقع تنظر إلى ابنتها و أمها. أنارت ابتسامة متكلفة عينيها الحزينتين إنارة خافتة. أخذت تشهق كالأطفال و هي تضم صغيرتها إلى صدرها. انطلقت كاميليا تشهق بدورها. فجأة، أحست بقطرات باردة تسقط فوق أذنها اليسرى. إنها دموع جدتها جاءت لتمتزج بدورها بدموعهما.بعد ذلك، اتجهن إلى الساحة الخارجية.
كانت الأم تسأل عن أحوال الجميع: زوجها و أبنائها الذين كان عددهم آنذاك خمسة، و البقال، و بائعة الخبز رحمة التي تأتي من حين لآخر لمساعدتها في الغسيل، و الجدة متحلية بالصبر، تجيب عن كل أسئلة ابنتها إجابات تتخللها زفرات حارة. في نهاية الزيارة، تجرأت الأم على طرح السؤال الذي طالما خشيت طرحه:

- يمّا، كيف حال أخي محمد ؟ هل لا يزال يسهر حتى وقت متأخر من الليل ؟...

حركت الجدة المتعبة رأسها دون أن تجيب. أما كاميليا، فترجمت الأسئلة في رأسها الصغير هكذا: "هل لا يزال يدخن الحشيش؟"
انحنت الجدة مستغلة لحظة صمت، لتخرج من القفة الأكلات اللذيذة التي هيأتها من قبل. عندئذ، التفتت الأم إلى كاميليا قائلة:

- كاميليا يا ابنتي العزيزة، أعول عليك كثيرا لمساعدة جدتك. أطيعي أوامر خالك و افعلي دائما ما يطلبه منك. و في الليل، لا توقظي جديك، فهما عجوزان و مريضان. هيا يا ابنتي، قبليني الآن. أتمنى أن أغادر عما قريب، هذا المستشفى.

بينما كانت الأم تقبلها، رأت كاميليا من فوق كتفها، القرويين يتخاصمون و يتزاحمون لأخذ أماكنهم في سيارة الأجرة. أحست بالقلق. تخشى أن تقضي الليل مع هؤلاء المرضى ذوي الوجوه البيضاء بياض المنازل المشدودة إلى أسفل جبل درسة. و تخشى بالخصوص أن لا تتمكن من فرم عشبة الحشيش التي يتناولها خالها في الليل. لحسن الحظ، استطاعت الجدة أن تجد مكانا في سيارة

الأجرة قرب السائق الذي كان كلما غير من السرعة، قرص قرصا خفيفا فخذ الطفلة. لكنها لم تتجرأ على إخبار جدتها بذلك. فهي تشعر أن ما يفعله شيء مشين، و إذا كشفت تلك اللعبة القذرة التي يقوم بها ذلك الوغد، فإن جدتها لن تتوانى في تقديم شكوى به لرجال الدرك بالمنطقة.

في تلك الأثناء، كان شخصان بالسيارة يتحدثان بصوت مرتفع عن قضية "جبهة" الكبرى و عن النجمة التي كانت تحمل معها كمية من الحشيش الموجه إلى الخارج. قال أحدهما:

- ليكن في علمك يا سي الزبير، بأن مثل هذه الأمور تحدث في كل مكان، و يتورط الكثير من الجمركيين في مثل هذه القضايا القذرة. مؤخرا، بلغ أحدهم عن شركائه بسبب خلافه معهم على تقسيم الغنيمة.
- لا تغتر يا صديقي، رد الآخر، كل هؤلاء المهربين سيغادرون السجن خلال الأربع و العشرين ساعة. فلديهم من الدعم من طرف السلطات العليا ما يكفيهم لشراء الريف كله بأراضيه و سكانه.

ما إن وطأت أقدام " الخالة" عتبة منزلها بعد العودة من المستشفى، حتى أطلقت العنان لدموعها. صاح فيها زوجها قائلا:

- توقفي عن البكاء يا امرأة ! لا تضيفي هما آخر إلى همومي. يكفيني ما أتكبده من أبنائك و أحفادك الذين لا زلت أتحمل مسؤوليتهم حتى الآن. يا لطيف ! رحمتك يا رب !

ثم خرج للصلاة في المسجد الذي يقع غير بعيد عن البيت، و هو يتضرع إلى الله و إلى الوالي الشريف مولاي عبد السلام بن مشيش أن يساعداه في محنته.

تذهب الجدة أحيانا، إلى المستشفى دون أن تصحب معها حفيدتها كاميليا التي تبقى في البيت من أجل إعداد الطعام لخالها و جدها. تستغل كاميليا هذه المناسبة، لتقوم بزيارة الجارة شامة المغنية المحترفة في فرقة موسيقية نسائية. كانت شامة تعلمها الرقص الشرقي، وغالبا ما تضمها أثناء ذلك، إلى صدرها الممتلئ و هي تهمس في أذنها: " أنت تفاحتي الصغيرة التي أتمنى أن آكلها ذات يوم. سأنتظر قليلا، إلى أن تنضجي جيدا." ثم تدس في كفها قطعة من المسك.

في المدرسة، كانت كاميليا تتابع الدروس في لامبالاة و هي تتثاءب، فيصب المعلم عليها جام غضبه. يوقظها بضربات عصاه التي تعودت عليها في نهاية المطاف. كان يعاقبها عقابا جسديا دونما مبرر، ناعتا إياها بابنة "الحشايشية". كان سلوكه المهين هذا يقوي كراهيتها للمدرسة. لم تفهم لماذا يريد المعلم أن يلصق بها هذه السمعة السيئة. فلا والديها و لا جديها يدخنون الحشيش. و على افتراض ذلك، فما المشين في الأمر؟ فالحشيش لا يعتبر جريمة في المنطقة. الكثير من شيوخ الحي و شبابه يدخنون هذه العشبة، و مع ذلك يحرصون على أداء صلاتهم بانتظام. أما خالها و إخوانها الصغار، فقد تعلموا تدخينه في هذا الحي نفسه الذي يباع فيه الحشيش على مرأى و مسمع من الجميع.

حوالي الرابعة عشرة من عمرها، أدركت كاميليا أن في حياتها عالمان مختلفان: عالم الإعدادية التي تدرس بها و عالم الحي الذي تسكن فيه. و أنها تنتمي أساسا، إلى العالم الثاني الأقرب إليها بواقعيته. سكان الحي كلهم متشابهون. يتصرفون بنفس الطريقة مع أبنائهم. لا يغلقون أبدا أبواب منازلهم. الآباء يتحدثون دوما عن الهجرة السرية، و عن البطالة، و عن تلك

الفيزا اللعينة التي تؤرق لياليهم. تجدهم من شدة يأسهم، لا يتحدثون طيلة النهار- سواء في المقاهي الغارقة في الدخان أو في بيوتهم و أمام أبنائهم - إلا عن بؤسهم و همومهم اليومية، و عن تذمرهم من جمود الدولة. و غالبا ما تؤدي بهم مطالبهم إلى الاشتباكات التي تحملهم إلى أقرب مركز للشرطة. مثل هذا الوضع، ما كان له أن يخلق أجواء مريحة داخل الأسر.

" كنت يا خالتي، مثل سائر الفتيات في سني، غير مبالية بما يجري حولي. كانت لي أنا أيضا، أحلام كثيرة. أن أحب و أُحَب. أن أسافر. أن أذهب إلى إسبانيا. أن أتجول في شوارع ماربيا و مالقة و برشلونة. أن أزف في فستان أبيض و في القفطان. كل ليلة، أنام و أنا أتخيل وجها من وجوه الشبان الذين تحتفظ بهم ذاكرتي. وجه أحد أصدقاء خالي أو وجه شاب صادفته و أنا أركب إحدى العربات... كانت وجوه ممثلي الأفلام الإسبانية تسكن أحلامي الليلية. في النهار، لم أكن قادرة على تحمل صراع إخواني و خالي و صراخهم الدائم. تخليت في نهاية المطاف، عن دراستي لأني لم أعد أطيق تلك التسمية التي ألصقت بي: "ابنة الحشايشية". بدأت أعتني بشعري و بجسدي. تعلمت الرقص والغناء. أصبحت أهتم أيضا، بكل الأنظار التي تلاحقني و أنا أمر في الشارع. أحسست في تلك المرحلة، بقلق أمي على مستقبلي. كانت تتمنى أن يتقدم لخطبتي أحد العرسان. من جهة أخرى كانت تستدين خفية من أبي، لتوفر النقود لإخواني. لكنها مع مرور الزمن، أصبحت مغلوبة على أمرها نظرا لكثرة متطلباتهم و لطباعهم التي أصبحت لا تطاق.

خالتي، لقد جاء اليوم الذي كنت أحلم به - دون سابق إنذار- عندما صادفت جارنا لحسن ذات صباح في طريقي. منذ مدة و هو يغازلني. لكنه ذلك الصباح، دس في يدي ورقة صغيرة و طلب مني أن ألتقي به في ساحة الفدان بعيدا عن أعين إخوتي. ما إن رآني في الموعد المحدد، حتى أخذني إلى شاطئ مارتيل. كان يردد طيلة مسافة الطريق، بأنه يحبني حد الجنون. كدت أطير من الفرح. تصوري يا خالتي، أن يكون لي حبيب و أنا في السن الرابعة عشرة ! لكنه أضاف بأني لا زلت صغيرة على الزواج، و أن علينا أن ننتظر قليلا، لكون أمه مصابة بداء السكري. ثم حذرني على الفور قائلا: " حذار يا كاميليا، إذا تركتني من أجل رجل آخر، سأكون قادرا على قتلك."

أحسست برعدة تسري في جسدي و أنا أسمع تهديداته، فخفضت بصري. بعد ذلك، ضمني بقوة إلى صدره، ثم قبلني بوحشية. و رغم حركاته العنيفة، إلا أنني شعرت بالراحة و بجسدي يتلاشى بين ذراعيه. لكن الأمور فيما بعد، أصبحت أكثر تعقيدا و تصرفاته أكثر عنفا و نحن نختلي ببعضنا في غرفته الصغيرة بشاطئ مارتيل. و في كل مرة، يهمس في أذني مبررا فعلته:

- إنه خطؤك يا كاميليا. لم أعد قادرا على الصبر. فأنت جميلة جدا بالنسبة إلي. أكاد أجن. أخشى أن أفقدك."

ثم يضمني بعنف إلى صدره. اختلطت الأمور علي. كنت أعتقد أن لحظات الرغبة الممزوجة بالعنف شيء طبيعي في الحب، و بأن لحسن سيحبني مدى الحياة. لكنه مل بسرعة من حضوري و من جسدي، فراح يطردني كلما جئت لزيارته دون سابق إنذار، مدعيا أن لديه أعمالا مستعجلة مع شركائه. سيكون ابن خالتي

التي تقيم بطنجة، من سيشعل شرارة مأساتي ويعجل بانهياري، دون أن يدري، بطلبه يدي من والدي.
أعرف يا خالتي، أنك كنت دائما تعارضين هذا الزواج، و لكني كنت أريد أن أتزوج. كنت أعتقد أن بمقدوري أن أحب أي رجل آخر. كنت أرغب في الزواج لأعيش نفس الأحاسيس التي عشتها مع لحسن. كل أفراد عائلتي وافقوا ما عدا أنت. و لكن، من ينصت إليك أنت بالتحديد ؟ لا أحد. و بالأخص أنا ! بدا لي اهتمامك بمستقبلي، أنت بالذات، غير طبيعي. أنت التي بنيت حياتك على هواك !
في الصيف، عندما عاد خطيبي من الخارج جاء لزيارتنا محملا بالهدايا الثمينة. كانت جدتي تشعر بالفخر و الاعتزاز و أمي تسبح في عالم الأحلام. في الحي، كنت أتبختر في مشيتي و أنا أمسك بذراعه. و في المقهى، كنت أحاول إخفاء اضطرابي و خاصة، عدم صبري. ذلك أني كنت أريد أن أعرف بسرعة تاريخ زواجنا و المكان الذي سنقضي فيه شهر العسل و بالأخص، التفاصيل الدقيقة لحياتي في أوروبا و عدد الأطفال الذين سننجبهم. كنت أشعر برغبة جنونية في أن يضمني إلى صدره. لكن، هيهات ! لم يفعل شيئا من ذلك، بل على العكس، وجدته يقول لي:

- كاميليا، لقد رأيتك و أنت تكبرين، و كنت دائما أفكر في الزواج من فتاة لطيفة تهتم بي و تكون علاقتها بعائلتي طيبة. إنك هذه الفتاة. أمك تتمنى أن أتزوج بك. فليكن ! سنتزوج بعد ثلاثة أشهر و ستأتين في البداية للعيش مع أمي و أخواتي بأصيلة. فهل يسعدك ذلك ؟

طبعا خالتي، لقد كنت سعيدة و أسبح في عالم الأحلام. مجرد التفكير في الذهاب إلى طنجة و أصيلة ثم إلى السويد كان يخدر حواسي. و لكن، بعد هذا الكلام الجميل انتظرت منه شيئا آخر، شيئا ملموسا، لكن حميد اقترب مني و طبع قبلة فوق خدي ثم نهض ليسلم على أحد أصدقاء طفولته. أحسست بالارتباك. لم أدر ماذا أفعل ؟ هل أكتفي بهذه القبلة و أظل محتشمة، أم أتصرف مثل ممثلات المسلسلات التلفزيونية لأجعل خطيبي يحبني حبا جنونيا فيعجل بزواجنا ؟ اخترت الحل الثاني، غير أنه لم يبال بالنار التي تلتهم أحشائي، فأخذني في الحين إلى أصيلة لرؤية أخواته. قضى تلك الليلة يتحدث عن حياته في البلاد الأسكندنافية. كان يبدو كبطل أمام أفراد عائلته الذين ينصتون إليه فاغرين أفواههم. أما أنا، فلم أكن سوى عنصرا من الجمهور المستمع. من حين لآخر، يتفضل بإلقاء نظرة علي. أبتسم له في انتظار أن يتكرم بإعارتي بعض الاهتمام.
تلك الليلة خالتي، لم أنم جيدا. أحسست بالقهر وأنا أتزاحم مع أخواته الثلاثة في نفس السرير. صباح الغد، اقترح علي حميد أن نقوم بجولة على شاطئ البحر. قدمني لبعض زملائه القدامى في المدرسة. كان يعرضني أمام أنظار الجميع مفتخرا بي و بشبابي. لكن تعامله معي كان خال من أية حرارة.
بعد عودتي إلى تطوان، و رغم كل تلك المنغصات، إلا أني عدت أحلم من جديد بحياتي المستقبلية كزوجة شابة. نسيت تحذير جارنا لحسن، بعدما أخبرتني أمي بزواجه من امرأة أخرى من نفس الحي. أحسست – حينذاك – و لفترة من الزمن، بالغيظ لكونه عوضني في زمن قياسي !
مرت أيام الصيف و الخريف في تهيئ جهاز العرس. كنت خلالها أتلقى من حين لآخر، بعض المكالمات الهاتفية من خطيبي. ذات يوم بعد الظهر من شهر نوفمبر،

و أنا أخرج من حمام الحي، وجدت لحسن متصلبا أمامي. نظر إلي مطولا، ثم بدون أدنى حرج، أرغمني على الصعود إلى سيارته التي انطلقت كالسهم نحو بيته بمارتيل.
داخل الغرفة، جردني من ملابسي. قبلني. داعبني مطولا، ثم أغلق فمي بيده و هو يبصق فوق وجهي.

- أترين؟ إنك ملك لي و تحت رحمتي. لن تنسي أبدا طيلة حياتك هذه اللحظات. أريدك هنا و الآن. أنا أعرف كيف أسعد النساء في الوقت المناسب. بكارتك ملكي أنا وحدي. كاميليا، أنا قوي و خبيث. أعرف كيف أجعلك تشتاقين إلي باستمرار."

ثم حررني من قبضة يده بحركة عنيفة. احتميت بإحدى زاويا الغرفة و أنا أرتعد. واصل تعذيبه لي في الغرفة المظلمة و هو يدخن السبسي. بعد ذلك، تمدد فوق هيدورة ملقاةعلى الأرض. من حين لآخر، ينفخ دخان الحشيش فوق وجهي، داخل فمي، بين فخذي، إلى أن فقدت الوعي. عندما استفقت، وجدته منحنيا فوق رأسي يرشني بماء الكولونيا و يصفعني ليبقيني مستيقظة. دفعني بقوة نحو الحائط و هو يصيح بي: " استيقظي " بوتا" و اسمعيني جيدا. من الآن فصاعدا، لن تستطيعي العيش مع أي رجل آخر غيري. حتى لو تزوجت بقريبك فإنك ستعودين إلي لاهثة ككلبة، باحثة عن الحشيش. لا أحد يستطيع أن يحب امرأة ترعرعت في أجواء تغمرها رائحة عشبتنا اللذيذة... ياسميننا... نعناع ريفنا... ها ها ها... جميلتي كاميليا، ستعودين إلي في وقت أقرب مما تتصورين. لقد طبعتك بطابعي الخاص و امتزج دمك بدمي. سأنتظرك."
ما إن أكمل كلامه، حتى رمى بأمتعتي في وجهي، و أمرني أن ألبس ملابسي. بالكاد استطعت الوقوف على قدمي. أحسست بسائل لزج يسيل فوق ساقي.
عندما اقتربنا من منزلنا، رمى بهذه الكلمات في وجهي :
" اذهبي الآن، يا كاميليا. تزوجي بسرعة. فأني في حاجة إليك وأنت امرأة مطلقة. سأبعث إليك بإشارات و الويل لك إن لم تردي على ندائي !"
منذ ذلك اليوم، لم أغادر أبدا منزلنا. لقد تطلب الأمر من أمي شهرا كاملا لمعالجتي. كاد النزيف أن يقضي علي. كان جسدي ملونا بالبقع الزرقاء، و وجهي متورما. و كان صوته يعذبني باستمرار: " ستعودين إلي. أريدك مطلقة."
لم يتبق أمامي يا خالتي، سوى أن أبكي شبابي الضائع. أعرف أن لا شيء أبدا، سيعوضني عما ضاع مني. لم أتجرأ على الاعتراف بذلك لأمي. فإلى من أودع سر فقدان شرفي؟ و كيف أحكي الحادثة التي عشتها في تلك الغرفة اللعينة بمارتيل ؟ لكن أمي فهمت. أصابها الرعب، فبدأت تحاول بكل الوسائل إبعادي عن الحي. ضاعفت من وتيرة التحضير للزواج و استنجدت بجدتي لمساعدتها. وظفتا معا كل ما تملكانه من مواهب لإقناع خالتي المقيمة بأصيلة أن تعجيل بهذا الزواج. أما إخواني، فقد ظلوا على علاقتهم بلحسن. كنت أشك في كونه يزودهم بالنقود. ذات يوم، بعث لي عن طريقهم خاتما ذهبيا صغيرا و بعض علب الماكياج مع هذه الكلمات: " كاميليا، أنت ملك لي. أنا في انتظارك." تأثرت بكلماته هذه، و طلبت من أخي الصغير أن يخبره بأني أرغب في رؤيته. ضرب لي لحسن موعدا بالعرائش، و من هناك، أخذني إلى الرباط حيث قضيت ثلاثة أسابيع أعتبرها الأكثر جنونا في حياتي. كل شيء كان جديدا بالنسبة إلي: الفندق، المطاعم، الشوارع، المحلات التجارية. غمرني لحسن بكل الملذات و الهدايا. نسيت أمي و

أبي و كل عائلتي. فلحسن يحبني بالطريقة التي أحلم بها. لم يكن يتوقف و هو يعانقني، عن نفخ دخان الحشيش فوق وجهي و كل عضو من أعضاء جسدي. في الأسبوع الثاني من هروبنا، سقطت طريحة الفراش. كنت أتألم كثيرا، و كان لحسن رقيقا في تعامله معي، يعتني بي بكل حب و حنان. و لكي يخفف من حدة ألمي، حقنني بحقنة اجتاحني على إثرها إحساس غريب. كنت معجبة بحبيبي. أثق به و أشعر معه بالراحة و الأمان.

عندما عدت إلى منزلنا، وجدت أمي تكاد تنفجر من الغيظ. حبستني في البيت إلى أن حلت ليلة زفافي. أثناء حفل الزواج، كنت كدمية بين أيدي المزينات. في الحمام، تركتهن يغسلن جسدي، يدلكنه، يحلقن شعر عانتي و إبطيّ دون أن أتحرك. أثناء طقوس الحناء، نُقشت يديّ و قدميّ بالحناء، عطر جسدي بماء الورد، ثم وضع فوق رأسي الخمار لينطلق الحفل. في الغد، جاء دور الملابس و الماكياج و عرض دمية "باربي" التي نجحت النكافات في صنعها مني، إرضاء للمدعوات المنبهرات بأدائي. منهن من يراقبن بدقة طريقة مشيتي، ومن يتأملن أدق تفاصيل طبقات الماكياج التي تغطي وجهي، و من يغتنمن فرصة مروري بينهن، لتقدير أثمان القفاطين التي ألبسها. لن أضيف شيئا مما تعرفينه جيدا، يا خالتي. لقد سلمت لهم نفسي يفعلون بها ما يشاءون دون أدنى مقاومة. و لكني مع ذلك، كنت مرعوبة في داخلي من مجرد التفكير في لقاء لحسن في طريقي. ازداد قلقي عندما انطلق الموكب الذي سيحملني إلى بيت زوجي، في اتجاه طريق طنجة. كنت متأكدة من أن لحسن يوجد مع أصدقائه بإحدى تلك السيارات التي تتمايل في الطريق أمامنا، و التي يحدث أصحابها ضجيجا جهنميا. لقد كانوا جميعهم بدون شك، مخدرون. شعرت بالخزي تجاه عائلتي الجديدة. فخالتي تكره مظاهر الاحتفال المبالغ فيها، و عدم الاتزان و الصراعات العائلية. لقد كانت متشبثة بمبادئها. لذا، فإن السلوك الفض لهؤلاء الذين يشوشون على موكب العروس، جعلها تشعر بالخجل أمام كل المدعوين الذين يرافقوننا. لقد تنبأت بذلك يا خالتي. إنك تعرفين خالتي التي تسكن بأصيلة أكثر منا جميعا. كنت تعرفين أن زواجي من ابنها يعتبر أكبر غلطة ارتكبناها. في منتصف الطريق قرب قرية احْسيْن، أوقف أخ زوجي سيارته و بدأت المعركة مع هؤلاء الطفيليين غير المرغوب فيهم. تدخل بعض الرجال لإنهاء الاشتباك. و عندما وصل الموكب إلى أصيلة استقبلت بالزغاريد و الأغاني. حوالي الخامسة صباحا، كنت منهكة تماما. أخذني زوجي عند إحدى قريباته لقضاء ليلة الزفاف هنالك. في الغرفة، كنت أسمع زغاريد النكافات يتخللها صوت لحسن: " كاميليا، ستعودين إلي. رائحة الحشيش تفوح منك. و لا أحد من الرجال غيري يستطيع تحمل رائحتك." لم أعد أعرف ما الذي يحدث لي. كنت أرتعد من شدة البرد. مددني زوجي فوق السرير، و طلب مني أن أنام. لكني، لم أستطع إغماض عيني، خالتي. كانت دقات الطبول لا تزال مستمرة وراء الباب. كنت أتخيل العائلة تنتظر السروال الملطخ بالدم، دليل حفاظي على بكارتي. كانت إحدى خالاتي قد وضعت سروالا أبيض مطرزا في حقيبتي لهذه الغاية. تخيلت كل الأعين و الآذان مركزة على باب غرفتي. يا إلهي، ما العمل؟ هل أحدث زوجي في الأمر؟ بمن أستنجد فيه ؟ أ بالقريب أم بالزوج ؟ تفجرت الدموع بداخلي. عندما رآني حميد منهوكة القوى، اقترب مني مطمئنا:

- كاميليا، لا تخافي. لن أصيبك بالأذى. كل الفتيات يشعرن بالخوف لأول مرة. اهدئي الآن. سأنتظر إلى أن تصبحي مستعدة.

آه، خالتي. أن أصبح مستعدة، هذا ما لن يحصل أبدا ! لم أعد أمتلك ما أقدمه هدية لزوجي ! العار يكلل رأسي. فجأة، شعرت بالخوف منه. الخوف من يديه و من جسده و من كلماته. ابتعد عني و كأنه شعر بنفوري منه. ستار حريري يفصل بيننا. أحسست بالراحة، و لكن ليس لفترة طويلة، إذ عاد هذه المرة يلبس دراعية و يدخن سيجارة. بدأ جسدي يرتعش. برد غريب يخترق عظامي. و بدل أن يضمني إلى صدره، غطاني بإزار. لم أعد قادرة على التحمل. ارتميت تحت قدميه أستجديه:

- حميد، أرجوك احميني. لا تسلمني للعائلة. اكتم سري. أنا لا أستحقك. و لكنك ابن خالتي وعليك أن تدافع عني. سأكون لك أمة. سأحاول النسيان. خذني بعيدا عن الحي و عن تطوان و عن الشمال كله..."

امتقع لون حميد، و بدأ يفرك يديه في عصبية. أشعل سيجارة أخرى سحبتها من بين أصابعه دون أن أشعر و بدأت أدخن. وددت لو يأخذني زوجي هنا فوق السجاد، في عز بكائي و شهيقي. قام أخيرا. ضمني إليه بحنان و هو يسألني:

- هو الذي كان يتبعنا البارحة في طريق "كروشي بلانكو" أليس كذلك ؟ هو الذي كان يصيح بأنك ملك له ؟ أخبريني بكل شيء. لا تخافي. ضعي ثقتك في.

خفضت رأسي و أغمضت عيني مؤكدة كلامه:

- إنه هو. لقد كنت ملكه منذ الرابعة عشرة من عمري. حميد، أرجوك. خذني معك بعيدا إلى السويد. لا أستطيع البقاء إلى جواره. سيأتي ليأخذني. إنه يخيفني. سيقتلني. لم أعد قادرة على مقاومته.

لم يحرك زوجي ساكنا أمام اعترافاتي هذه. و بعد دقائق من الصمت قال لي:

- أحضري السروال.

أخذه، نظر إليه طويلا، ثم نهض و اتجه إلى الحمام، وأغلق الباب وراءه. بعد لحظة، خرج و ساعدني على التمدد فوق السرير. كنت بالكاد أستطيع الوقوف. تمنى لي ليلة سعيدة ثم تمدد فوق الأريكة قائلا:

- كاميليا، حاولي أن تنامي قليلا. ينتظرك يوم صعب بعد قليل. لا تهتمي بي. أحس بألم في أضراسي و لكنه سيزول.

آه، يا خالتي ! يا له من كابوس عشته قبل الفجر ! رأيت النكافة و هي تنشر السروال الأبيض أمام رجال العائلة، وهم يخفضون أبصارهم خجلا من العار الذي لحق بشرفهم. و أبي يصيح بأنه سيقتلني ويطرد أمي حالا، ثم ينتحر ! "

هربت حياة من الضجيج الهائل الذي يحدثه الصرار، و لجأت إلى الصالون المنفتح بابه على الحصن العظيم الذي يهيمن على المياه الصافية لهذا الشاطئ المنعزل. اعترافات كاميليا تطاردها باستمرار، و تجعلها تتعايش مع هذا الألم الذي ينخر أعماقها. تجد نفسها تسترجع مسار كاميليا و تصارع من أجل فك ألغاز هذه المأساة و التوصل إلى الحقيقة. تشعر و كأن اعتقال قريبتها قضية تخصها هي بالدرجة الأولى.

**حفل العار**

"... في اليوم الموالي لليلة الزفاف المشؤومة التي قضيتها يا خالتي، أتأرجح بين الكوابيس و الواقع، تجمدت في فراشي و أنا أسمع ابنة خالتي نوال تقول لي وسط زغاريد النكافات: "جميلتي كاميليا، استيقظي. الكل ينتظر "سروال السعادة" ! أين وضعته ؟ لا تخجلي. اعطني إياه."
ما إن سمع زوجي هذا الكلام، حتى هب واقفا من على أريكته. قبّل ابنة خالتنا، و وضع في يدها السروال المكور الذي أخرجه من تحت مخدة. غادرت نوال الغرفة في الحال تصحبها زغاريد تصك الآذان. رغم قلقي، لم أتجرأ على سؤال زوجي كيف تدبر أمر إنقاذ شرفي. سمعنا هرجا و مرجا في الدار: أغاني، صيحات، زغاريد، ضحكات تنطلق من كل مكان. أحسست بالراحة. بقية الأحداث مرت كما تمر عادة. تأجج أوار الحفل. أصوات من كل نوع تغزو غرفتي. الأجساد الثقيلة تتزاحم أمام سريري متربصة بأدنى تعابير وجهي. التعليقات تلهب صخب الحضور. الأطفال يتسللون ليراقبونني خفية، من وراء ستار السرير و هم يضحكون، تثيرهم فكرة ملامستي. الكل يدللني، يقبلني، يبدي إعجابه بي و يهنئني. كان سروالي منشورا وسط صينية كبيرة من النحاس الأصفر موضوعة وسط غرفة الاستقبال. و النكافات يطلقن الزغاريد حاثات بذلك، المدعوين على وضع الأوراق النقدية فوق السروال المتوج ببقعة دم وردية. دم من؟ دم ماذا؟ لن أعرف ذلك أبدا، يا خالتي. تراكمت النقود فوق سروالي تقديرا لحفاظي على شرفي. بحثت بعيني عن أمي. كانت تتجنب نظراتي. فهمت خجلها الذي أجج خجلي. تجمعت حولي قريناتي من بنات خالاتي، يسألنني عن أدق تفاصيل ليلة الزفاف، فرحت أختلق حكايات حب مثيرة و قد اغرورقت عيناي بالدموع. كن ينصتن إلي بكل اهتمام، ما عدا مون التي كانت تضايقني بنظراتها المثيرة. لكني في النهاية، قلت لهم بأن ممارسة الجنس شيء فظيع و مقزز ! صدمت أخوات زوجي، فقاطعنني طيلة الصباح. لم أكن قادرة على الاعتراف لهن بأني لم أحب بعد أخاهن، و بأن لا شيء حدث بيننا.
في قاعة الاستقبال، كان المدعوون لا يزالون يتوافدون. انتهزت لحظة استراحة، لأسأل أخي الصغير عن أحوال لحسن. لقد تخيلته مسجى في هوة داخل سيارته المفحمة. لكن أخي طمأنني قائلا:

- لقد عاد إلى تطوان في الساعة السابعة صباحا، بعدما ظل يبحث عنك في كل شوارع لعرايش و أصيلة. و طلب مني أن أبلغك رغبته في رؤيتك في أقرب وقت. هذا الرجل خطير يا أختي. أنا خائف علينا جميعا منه. لا تتركي كلماته تؤثر فيك. لو كان يحبك فعلا، لفرضك على أمه. يا إلهي، ما العمل الآن، لكي يتركك و شأنك بعدما تزوجت ؟

أجبت أخي تلقائيا قائلة:

- رحال، لا تهتم بالأمر. أعرف لحسن جيدا. إنه يحبني كثيرا. و هو الآن غاضب لكونه لا يتحمل رؤيتي زوجة لرجل آخر. إنه يندفع أحيانا بدون شعور، لكنه رغم ذلك ابن بار لم يرد أن يغضب أمه. لا تقلق أخي. اذهب الآن، و اله مع الآخرين. سنجد بدون شك، حلا لهذا المشكل.

ابتسم رحال متمنيا لي حظا سعيدا. وقبل أن يخرج، وضع في يدي علبة صغيرة. كانت بداخلها صورة لحسن و قارورة عطر أسرعت أفتحها، فإذا برائحة لحسن تفوح منها: خليط من الكولونيا و الكيف !

يا إلهي، ما العمل ؟ كيف ألتقي لحسن؟ ما الذي أفعله وسط هؤلاء النساء المصابات بالهستيريا أمام قطعة ثوب أبيض ملطخ بالدم ؟

لم يقترب زوجي مني طيلة الليالي التي تلت ليلة الزفاف. أصابني الجنون لمجرد التفكير في احتمال طرده لي، فرحت أقوم ببعض الخطوات الخجولة للتقرب منه. و رغم جرأتي، مر أسبوع دون أن يتغير شيء في علاقتنا. لكنه فاجأني ذات صباح، بأن تسلل إلى فراشي لينام بجانبي. جردني من ملابسي دون أن ينطق بأية كلمة، مارس الجنس معي، ثم أغلق على نفسه باب الحمام. شعرت بالتقزز من هذا "الشيء" الفظيع. امتلأ فمي بالقيء. حاولت انتظار مغادرته للغرفة، غير أني لم أطق الصبر طويلا، فأفرغت ما بجوفي في السرير. خشيت أن أغتسل أو أن ألمس جسدي. أدخلت الإزار بين فخذي بحركة عنيفة. كنت أرتعد من شدة التقزز، و أنا أنادي لحسن بداخلي، كي يأتي لإنقاذي.

خالتي، بعد مرور خمسة عشر يوما على هذه "الليلة العجيبة"، اقترح علي زوجي مرافقته إلى الشاطئ. استغربت العائلة كلها هذا الخروج الغريب."لم نر أبدا في عائلتنا، عروسا تذهب للاستحمام في البحر ! " علقت بعض العجائز اللواتي كن يرابطن عندنا. "العروس ذات التربية الجيدة، و التي تشعر بالسعادة في أحضان عائلتها الجديدة، لا يمكنها أن تغادر بيت الزوجية قبل " الخرجة الكبيرة"، أي بعد مرور أربعين يوما على الزواج. عليها أن تخشى مجرى الهواء و الماء البارد و المراحيض العمومية خوفا من العقم و العين، لأن جسدها لا يزال هشا و مسامه كلها مفتوحة." استسلم زوجي في نهاية المطاف لاحتجاجاتهن و ألغى فكرة الخروج.

بعد ثلاثة أسابيع، عزم حميد على العودة إلى أوروبا. عشية سفره قال لأمه:

- ماما، كاميليا أمانة في عنقك. كوني أمها الثانية. سآتي قريبا لأخذها معي. يمكنها زيارة أمها بصحبتك، و إلا، فإن أمها هي التي تأتي لزيارتها هنا." ثم أضاف و هو يلتفت نحوي: كاميليا، لقد أصبحت طرق أصيلة و تطوان في المدة الأخيرة، غير آمنة بالنسبة لامرأة شابة تسير وحدها. لذلك، أفضل أن تكوني دائما برفقة أحد من أفراد العائلة."

قرص خدي الأيمن بلطف و هو يزيل نظارتي. كانت عيناي مغرورقتان بالدموع. جذبني نحو غرفتنا و أغلق الباب و ضمني إلى صدره.

- أريد أن أحميك، همس لي من خلال شعري. أحميك من نفسك. ستكتشفين الحب الذي تستحقينه عندما تذهبين معي إلى السويد. سأشتري لك سيارة و كل الفساتين التي تحلمين بها." ثم أشعل سيجارة وضعها بين شفتي.

خالتي، لم يفهم حميد شيئا. لقد كنت أرغب في الذهاب معه في تلك اللحظة بالذات. و أن أعرف الحب الذي يتحدث عنه و الأحلام التي يصورها لي. و لكن، و في نفس الوقت، كنت أريد العودة عند أمي. كنت أحن إلى سماع صوت لحسن الأجش، و إلى رائحته و لعابه و كل شيء فيه. تلك الليلة، عندما دعتنا خالتي لتناول العشاء، بالكاد لامست الطعام. و كسائر الليالي، ضاجعني حميد بدون أن ينطق بأية كلمة. يطفئ عطشه في جسدي و يغط في نوم عميق. استيقظت

باكرا، على وقع نقرات على باب الغرفة. إنها خالتي التي جاءت تذكر زوجي بموعد سفره. سمعتها تضحك و تتمنى لابنها ذرية صالحة. عاد حميد إلى الغرفة بعدما تناول فطوره. طبع قبلة خاطفة فوق خدي، و خرج بسرعة، ثم عاد أدراجه ليقول لي:
" كامليا، بمجرد وصولي سأهاتفك. لا تقلقي، سأبعث إليك بحوالة بريدية من أجل مصاريفك."
بعد ذهابه، بدأت حياتي الزوجية في أصيلة في جو من الضغوطات و الممنوعات التي لم أكن متعودة عليها في تطوان. فكرة واحدة أصبحت تسيطر علي. أن أرى جدي و جدتي و صديقاتي. أبديت رغبتي تلك، لبنات خالتي اللواتي وجدنني غريبة الأطوار و ناكرة للجميل.
مع مرور الوقت، فقدت شهية الطعام. كنت أعيش في دوامة من الزيارات وضجيج الأطفال و التلفزيون، مع أن وجود جدتنا الكبرى في نفس الغرفة، يضفي عليها جوا حميما. و رغم حالة المرح التي تسود المنزل، إلا أني كنت أقضي الساعات الطوال جالسة بدون عمل، أبتسم ببلاهة، لهؤلاء و أولئك. عندما اتصل بي حميد هاتفيا بعد أسبوع من ذهابه، اعترف لي بصوت محموم، بأنه مشتاق إلي و مستعد لتنفيذ كل طلباتي. أسرعت على الفور أقول له:
"حميد، أنا أيضا مشتاقة لأمي. أحس بالغربة بين أخواتك. دعني أذهب للعيش مع أهلي في انتظار عودتك." ما إن سمع ذلك حتى طلب مني أن يكلم أمه. من خلال المناقشة التي دارت بينهما، لم أسمع سوى: "ياه، ياه، الله يا ابني ! ماذا سيقول الناس؟ اهدأ، سأصلح الأمور. ثق بي." ما إن أنهت خالتي المكالمة حتى رأيتها تحرك رأسها و تتجنب النظر إلي. عضت على شفتها ثم أغلقت باب المطبخ عليها. لم أستطع الصبر طويلا، فالتحقت بها بعد ربع ساعة، و فاجأتها بالسؤال:
"متى سأذهب لزيارة أمي؟ "
أدارت خالتي وجهها المحمر نحوي قائلة: " سأتصل هاتفيا بأمك هذا المساء لتأتي لزيارتك. هذا ما يريده زوجك. لا زلت لم تكملي بعد الأربعين يوما. لهذا، لا يمكنك الخروج. إنها عاداتنا وعلينا أن نحافظ عليها." كانت لهجتها حادة. عندئذ، تركتها و صعدت السلم و أنا أبكي. في المساء، استحممت و تزينت و جلست قرب جدتي التي بدأت تشتكي من آلام في بطنها و ظهرها. بعد لحظة، نظرت إلي و حدقت في وجهي جديا رغم نظرها الضعيف، ثم همست: " كاميليا، يا صغيرتي، لماذا صبغت وجهك هكذا ؟ أ لا تخجلين، و أنت تتزينين في غياب زوجك ؟ في زمني، لم تكن المرأة تضع الكحل في عينيها و السواك فوق شفتيها إلا لتبدو جميلة و مثيرة لزوجها. لا أعرف يا ابنتي، كم بقي في عمري لأعيشه بينكم. لهذا، أريدك أن تنصتي إلي جيدا. الله و الرسول يباركان المرأة النظيفة التي تفوح منها رائحة المسك و العنبر و هي بين أحضان زوجها. هيا، انهضي و أزيلي هذا الأحمر الذي يجعلك تبدين كمعزة مذبوحة ! "
نهضت لأغادر الغرفة تاركة يمّا لالا تعلن لمن يريد سماعها، وعضها و تذمرها من هذا الجيل الأبله. عندما حل وقت العشاء، رفضت تناول الطعام و نمت و أنا أبكي. و كم كانت مفاجأتي عظيمة، خالتي، عندما فتحت في الصباح عيني لأجد أمي تجلس قرب فراشي. قبلتها و أنا أشهق و أطلب منها أن تأخذني معها إلى تطوان للعيش هناك.

- لا. أجابتني. عليك أن تنتظري حلول الأربعين. بعد ذلك يمكنك المجيء لزيارتنا. انهضي الآن، سنشرب الشاي في الصالون مع ابنة خالتك نوال التي جاءت معي.

هذا اللقاء مع أمي، خفف علي قليلا. لكن خيبتي ظلت كبيرة بخصوص أخبار لحسن. ابنة خالتي نوال، التي لا يمكن أن تخطر على بالها أسباب حزني، بدأت تخفف علي و تقول بكل حنان:

- هيا يا كاميليا، لماذا كل هذا الحزن في عينيك ؟ انتظري قليلا، يا غزالتي، قريبا جدا ستغمرك السعادة. لا بد من الوقت الكافي لكي تشعرين بالحب تجاه زوجك. وعندما تنجبين طفلك الأول، آنئذ لن تفكري حتى في زوجك.

هيهات ! ما لا تعرفه ابنة خالتي هو أني لا أفكر إلا في رجلي الآخر. و فيه وحده لا غير !

هل عرفت الآن، يا خالتي بأن لحسن كان على صواب ؟ إنه يعرفني حق المعرفة ! يعرف أني سأكون تعيسة بعيدا عنه. كنت أشتاق إلى رائحته و كلماته النابية و عنفه. لقد تعودت على رؤيته، و كنت بحاجة إلى أن أكون في نفس المدينة التي يوجد بها. كما أني كنت مشتاقة إلى روائح حينا و عاداته اشتياقا فظيعا. كنت أنتظر بفارغ الصبر، فرصة اللقاء به. بقية مأساتي ستحبك فصولها بسرعة فائقة. ستهرب مني حياتي و تتطاير شظاياها... شظايا شظايا من الدموع... و الهروب... و الكذب..."

مسحت حياة العرق المتصبب فوق جبينها و هي تنهض فجأة، من فوق أريكتها. اتجهت بخطى مترددة نحو الشرفة، باحثة عن قليل من الهواء المنعش نظرا للخفقان الذي يصيبها في مثل هذه الحالة من التوتر والقلق. أثارت انتباهها غربان تحوم حول حقل من الذرة، قبل أن تنقض على سطوح ثلاثة منازل مهجورة تخزن فيها القرية احتياطها من الروث. انطلقت سحابة كثيفة من الغبار الممزوج بالتبن تغطي حقل الصبار. تطايرت بضع دجاجات فزعة.

" كاميليا، يا ابنتي، إني أثق في صدقك. لقد كنت تحملين في أعماقك حبك لذلك الرجل الآخر الذي عرفته قبل ابن خالتك. لقد كانت رائحة " الكيف" الممزوجة برائحة المني تفوح منك على امتداد سنوات طويلة، حتى إنها أصبحت رائحتك الخاصة. لقد طبعك بطابعه، منذ مراهقتك، عن طريق العنف الجنسي في ظل عالم المخدرات المتعفن. ثم، و بكل خسة، اقترح عليك أن تتزوجي من ابن خالتك بأصيلة، لأنه شاب و أعزب و لن يشك أحد في شيء. سيحميك و ينقذ شرفك. فيا لها من ضربة معلم ! لم يسعك أمام هذه الوقاحة، إلا أن تطلقي العنان لدموعك متخلية عن كبريائك. لقد خضعت لرغبة ذلك الوغد، و انتظرت حصاد "الريح". ذلك الوغد الغامض الذي مهد الطريق، و بكل مكر، لدخولك السجن. كان على الدوام، يؤجل مشروع زواجكما، غير مبال بيأسك. كان يهمس في أذنك مطمئنا:

" بعد سنوات ... لا شيء يستعجلنا عندما نحب !... تسلحي بالصبر، "مي أمور".. انتظري حبيبتي، إلى أن يحين أوان الزواج. و لنستمتع الآن بعلاقتنا، بعيدا عن الأعين، في عشنا بمارتيل."

فيا له من دليل قاطع على الحب !

كان يريد أن يتلف آثار الطرق و أن يربح الوقت. فأنت تعرفين الكثير عنه و عن أصدقائه المريبين. و شمال البلاد يغلي. والجرائد تفضح أباطرة المخدرات. و محترفو التهريب يصابون بالجنون. و الحلقة تضيق حولهم، و المراقبة الجمركية تتضاعف. كانت وتيرة الأحداث تتسارع، و طلباتك أنت تتزايد، و خضوعك له يقل.
فيما بعد، حاول امتحانك بأن قذف في وجهك بكلماته هذه :

- لقد فات الأوان، اذهبي لحال سبيلك. لم أعد أرغب في رؤيتك.

أصابك الإحباط. بدأت تصيحين و تتشبثين به. كنت تريدينه وحده لا غيره، زوجا لك. عندئذ، غير موقفه فجأة، و بدأ يواسيك مراوغا. يقول لك بأنه طبعا، ملك لك و إلى الأبد. أعطاك الدليل القاطع في الحين، في تلك الغرفة البئيسة بشاطئ مارتيل. كان ثملا. ضربك حد النزيف ليطبع مملكته و يفرض سلطته عليك، ثم ولج جسدك من كل الفتحات.
منذ ذلك اليوم المشؤوم، بدأت أخبار " المطاردة" تتحدد بدقة. خوفك عليه من الضياع أدى إلى ضياعك. كنت سجينة حبه. حرصك الشديد على التمسك بهذا الحب جعلك، و دون وعي منك، تنزلقين نحو الهاوية من أجل رجل متعفن.
آه، يا طفلتي المسكينة ! لن تستطيع كلماتي أبدا، أن تصف جحيم هواك ! "

" خالتي، هذا اليوم، وأنا أقبع وحيدة في زنزانتي، وجدت نفسي أفكر في ذلك الحب الجارف الذي يفتت قلبي. لم أجد له تفسيرا. لقد كانت مشاعري صادقة. أحببت لحسن حبا جنونيا. لكنه استغل حبي هذا و جعلني أنفذ كل ما يطلبه مني. لقد كنت أثق به ثقة عمياء. أ لم أكن "حبيبته الصغيرة الرقيقة" ؟ هكذا كان يقدمني لأصدقائه. فلماذا اهتم إذن، بمصدر المال الذي يغدقه علي ؟ لقد كان دائما يعدني بالزواج.
بعد مرور ثلاثة أشهر على زواجي من ابن خالتي، لم أعد قادرة على التحمل، فهربت عدة مرات للالتقاء بلحسن. فراري المتكرر، جعل عائلة زوجي تدق ناقوس الخطر و تخبر زوجي الذي صدمه تصرفي و أحرجه أمام العائلة، فأرسل وكالته لأبيه كي يطردني. و حفاظا على المظاهر، أعلنوا طلاقي مع تعويض قدره ثلاثة آلاف درهم لا أستحقها في واقع الأمر. بعد عودتي إلى تطوان، مرت عدة أشهر قبل أن يظهر لحسن. و عندما ظهر من جديد، وجدته قد تغير كثيرا. أصبح أكثر دناءة. يفرض علي التدخين معه، و يوكل إلي قضاء مهام عند أصدقائه الذين يتصرفون معي تصرفا غير لائق. يحدث أيضا، أن يغيب شهورا طويلة دون أن يخبرني عن سر تنقلاته. "أعمال مهمة تشغل كل وقتي" يقول بشكل مبهم. كنت أكتفي بإجاباته تلك، دون محاولة معرفة التفاصيل. فغيابه كان يعذبني، و حضوره من حين لآخر، لا يعمل إلا على الزيادة في تخوفي من قطيعة وشيكة. غير أن لحسن، و يا للمفارقة، أخبر أمي في نفس تلك الفترة، بأنه ينوي الزواج بي. فصدقته و سمحت لي بالخروج معه. و استعادت بذلك، بعضا من كرامتها المهدورة، أمام جيرانها.
قبل اليوم المنحوس الذي سأراه فيه لآخر مرة، كان لحسن قد احتفظ بي سجينة في بيته لمدة شهرين. سعت أمي بكل الوسائل إلى معرفة أخباري، لكن مساعيها قوبلت باللامبالاة من طرف السلطات و بتواطؤ كل الذين يعرفون لحسن.
ذات ليلة حوالي الساعة الثانية صباحا، ظهر لحسن فجأة في الغرفة. ضربني حد الموت، مؤاخذا علي محاولتي الهروب مع خطيبة شريكه. اغتصبني بشكل فظيع،

ثم أجبرني على وضع المساحيق فوق وجهي و أخذني بالسيارة حتى باب بيت عائلتي و هو يقول:
" إذا أخبرت عني، اعتبري نفسك و عائلتك في عداد الأموات ! " ثم دفعني بعنف نحو الرصيف دون شفقة أو رحمة. تلك الليلة، يا خالتي، بلغت مأساتي قمتها. أصبح كل شيء ضبابيا في ذهني: حبي الأعمى للحسن و يأسي الشديد من أن أصبح زوجة له في يوم من الأيام. في الأسبوع الذي تلا هروبه، لم تتوقف الشرطة عن محاصرتي بالأسئلة حول معارف لحسن و أعماله المشبوهة، و أصدقائه وشركائه. و لكن، ماذا أعرف أنا حتى أخبرهم به ؟ حاولت إفهامهم أني لم أكن أهتم بأي شيء آخر ما عدا الرجل الذي أحبه حبا جنونيا و الذي وعدني بالزواج. كان لحسن عادته، الأقوى و الأكثر خبثا، إذ نجح في الهروب من العدالة. لقد حطم حياتي و لوث سمعتي و جسدي الذي ترك فيه ندوبا لا تمحي. اتهموني بكوني شريكة له. شريكة له في ماذا ؟ في حب جنوني تتنفسه كل ذرة من ذرات جسدي منذ نعومة أظافري؟
تلك هي مرحلة شبابي، يا خالتي، و حياتي الجديدة التي أحياها بعدما حُكم علي."

# المحاكمة

" عزيزتي كاميليا، لقد جعلني الحادث المأساوي لمقتل تيمون زميل ابني حسن، في بني امكادة، أسترجع ظروف اعتقالك. أثناء الاجتماع العائلي، رأيت النفاق مرسوما بوضوح على وجوه بعض الحاضرين، و بالخصوص أولئك الذين يقطنون بأصيلة. لقد كانوا جميعا يعرفون مكان وجودك، ما عدا أنا بالطبع ! يخشون أن أفشي سر قضيتك التي يعتبرونها "وصمة عار في جبين القبيلة". يخفون عني ما حل بك ، رأفة بي ، كما يدعون! لكن الأوان قد فات ! فأنا اليوم، أعرف كل المأساة التي عشتها أنت و والديك، دون أن تطمعي في مساندة أحد من أفراد العائلة الكبيرة. غالبا ما أتذكر ذلك اليوم الفظيع، الذي كانت صدمتي فيه توازي صدمتي و أنا أسمع خبر مقتل تيمون."

تطوان: 19 يوليوز 1994. يوم محاكمة المراهقة. جاءت حياة من العاصمة خاوية الوفاض لا تمتلك أي خبر و لا أدنى مساعدة تقدمها لأم كاميليا و جدتها. لم تكن تملك غير حضورها إلى جانبهما في محنتهما. قيل لها إنهم جميعا يوجدون بالمحكمة. كانت تتنقل، تائهة، بين الأروقة المظلمة الضاجة بالأصوات المختلفة. عائلات المتهمين منهارة. المحامون مضطربون و مرهقون. القضاة صارمون حد القسوة.
أحست حياة بالاضطراب في هذه الدوامة من القلق و الرعب و محاولة تقديم المساعدة في آخر لحظة.

بدا لها شارع "أفينيدا" بعيدا جدا من خلال ذكريات الطفولة، و كذلك خطواتها الأولى في مجال التعليم. قاومت حنينها الذي يبدو في غير محله في هذا اليوم

الذي تحاكم فيه الفتاة المراهقة. أحست و هي ترى الهيكل العظمي المتحرك "للخالة"، بمغص في بطنها." الله يكون في عوننا، لقد حكموا على صغيرتنا كاميليا." قالت الخالة بصوت متحشرج. إنها تختنق ! لقد حكموا على حفيدتها بخمس سنوات سجنا و هي في السابعة عشرة من عمرها.

واصلت حياة سيرها وسط حشد من الناس لا أحد منهم يعرفها. كانت تبحث عن أم كاميليا التي توجد بمكتب المحامي الذي لا يبعد إلا بمسافة قصيرة عن المحكمة. ضوء النيون الباهت يصيبها بالدوار. لم يكلف كاتب المحامي الملتحي نفسه عناء القيام لها أو مصافحتها.
" ليس بيدنا ما نفعله من أجلها. ستقضي سنوات النحس هذه في السجن، و ستقضيها معها عائلتها من خارج السجن طبعا. الملف ثقيل. و المخدرات في الظروف الحالية، لا ترحم أحدا. فليسامحها الله على ما اقترفته من ذنوب. لقد انساقت وراء أوغاد لا أخلاق لهم. و لكن الحياة كفيلة بأن تجعلها تندم على ما فعلته."
كان هذا الوعظ يثير الاشمئزاز و هو يخرج من فم ذاك الكاتب الصغير الذي يتظاهر بكونه رجل قانون عظيم ! فيا للهول ! أحست حياة بالكلمات تختنق في حلقها.

" عزيزتي كاميليا، لم يتبق لي سوى كلمات محتقنة في أعماق فمي الأخرس. فيا للخسارة ! أن تضيع فتاة مثلك و هي في عز تفتحها على الحياة ! طفولة لا مسؤولة و شباب منحرف يسجن بدل المذنبين الحقيقيين. لا يفصل بينك و بين مون سوى شهر واحد. كلاكما من مواليد بداية السبعينيات و ما تلاها من انفجار عقاري، و من إشاعة حول إنشاء المنطقة الحرة و الأحلام الكبيرة حول المكانة المالية التي ستحققها مستقبلا، حتى ساد الاعتقاد بأن الاقتصاد بخير. في ذلك الوقت، كان والدك العامل البسيط، يكدح في هولندا بمدينة "بريدا"، لكي يتمكن من شراء منزل لكم أسفل جبل درسة."

كان رؤساء العصابات داخل الحي، يوطدون مكانتهم و ينظمون شبكاتهم في الوقت الذي كانت فيه الأم تستنجد بمن يساعدها. فهي متأكدة من أن قريبتهم التي تقيم بالرباط، تملك نفوذا قويا لكونها بالعاصمة. طلبت منها حياة نسخا لوثائق الاتهام، غير أنها مع ذلك، تجد نفسها عاجزة أمام هذه المأساة التي تتخبط فيها عائلتها الفقيرة. فكرت في الاتصال بوزير حقوق الإنسان الذي قيل لها عنه بأنه رجل نزيه و مهتم بالقضايا الاجتماعية، و أن أحد قضاة هذه المدينة المنزوية في أعماق جبال الريف، من أبناء عمومته. لكنها علمت من أحد العاملين بالمحكمة أنه مع الأسف، يوجد في عطلة. أصرت على فهم سير المسطرة القانونية، لكن صدمتها كانت كبيرة. ظلت تتطلع إلى وجوه العائلات من حولها. أنظارهم تتوسل. أياديهم تتشبث بأزياء المحامين السوداء. كرامتهم تداس يوميا، بسبب الفساد الواضح لرجال القانون المتعجلين على الدوم. الخوف من المستقبل المهين يجتاح أجسادهم المنهارة. أناس لا حول لهم و لا قوة. ذنبهم الوحيد أنهم يسعون إلى حماية فلذات أكبادهم.
كانت حياة وهي تتنقل عبر أروقة المحكمة، تتصارع مع عواطفها و تشعر بالعجز و الضياع. هكذا هي ! لا تستطيع فعل أي شيء ! السجن ممنوع عليها. تأتي دائما

متأخرة جدا ! منذ ذلك الحين لم تقم أبدا، بزيارة الفتاة المراهقة التي تقبع وراء القضبان. و بسبب ذلك أيضا، تشعر أنها حقيرة. أحست بالاختناق وهي تختلي إلى نفسها في سيارتها. أطلقت العنان لدموعها، معترفة بالهزيمة.

" أنا ضعيفة، عزيزتي كاميليا، لكنني أمتلك قوة الكلمة. سأكتب عن طفولتك، و عن طفولة الفتيات "الساقطات" في الحضيض رغم أنفهن. و سيخرج هذا الكتاب للوجود. إني أعتبره نتاج جنوني. إنه مرافعتي للدفاع عنك. سأحدث ضجة. لا يزال بإمكاني أن أتكلم. بسببك أنت، و بالخصوص بسببي أنا، تتجاهل العائلة مأساتك. فالعار يحوم حول بناتهم غير المتزوجات. و كتاباتي و ما أقوم به قد يبعد مستقبلا، الخطاب عنهم. لذلك، فهم مستعدون للتبرؤ منا معا، لأن اهتمامي بقضيتك يلوث سمعة العائلة. فأنا بذلك، أمرغ اسمهم و قيمهم في الوحل. "يجب معاشرة الناس الأتقياء المتخلقين" يقولون. و أنت يا كامليا، قلبت نظام الأشياء، و لطخت سمعة الشرفاء و مكانتهم الرفيعة."

بدأ الغضب يتأجج و الكلمات ترتسم أمام عيني حياة. نصحوها بالابتعاد عن هذه القضية. ستصبح عرضة للأنظار إذا ما كتبت عنها. أرادوا أن يثنوها عن عزمها، لكنهم فشلوا. فهذه القضية تتعلق بقريبتها. و لذا، فإنها ستعيش معها مأساتها طيلة الخمس السنوات المقبلة.

- لا تهتمي بهذا المشكل، يا ابنتي. تقول أمها بمرارة. الأجدر بك أن تهتمي بأبنائك.

و لكن، ما دخل أبنائها هي بالمأساة التي حلت بقريبتها ؟ تتساءل حياة في غضب. عليها أن تفهم ما تقصده أمها بهذا الكلام. قررت أن تمزق ستار النفاق العائلي. جن جنونها. صرخت بداخلها في البداية، ثم بأعلى صوتها لتحكي " هذه القصة التافهة" التي وقعت ل"شمالية" صغيرة وقعت في حب أحد تجار المخدرات ! تعرف حياة أن مراهقات أخريات - عبر العالم - يعشن نفس المأساة. لكنهم هناك، يتكلمون، ولا يتسترون عن الحقيقية. أما في بلادها هي، فالأعراف و المحرمات تلجم الأفواه، و الرقابة الذاتية تلقن في المدارس. و عدم حرية التعبير عن هذه " الأشياء المخجلة" يزكيه صمت العائلة القاتل.

كيف بدأت حياة الكتابة؟ لقد بدأتها بالقلق و الألم، نظرا لعجزها عن مساندة قريبتها المراهقة في محنتها. تجد نفسها تتساءل أحيانا: " لماذا تجتاحها هستيريا الكلام، و هذه الرغبة العنيفة في أن تحكي للآخرين ما حدث ؟ لماذا لا تلوذ بالصمت مثل الآخرين ؟" في الواقع، لا تعرف لماذا. كل ما تعرفه، أن فئة عريضة من شباب بلادها في طريقه إلى الانحراف. المخدرات تحطم حياة الأبرياء، و هم يحذرونها من الكلام. يا إلهي، كيف يمكن ترك هذه المآسي و هذا السوس الذي ينخر مستقبل نساء و رجال الغد، يمر في صمت ؟ لقد لازم الخوف حياتها طيلة فترات مراهقة أبنائها. خوف فظيع، كان يحفر بداخلها أخاديد مؤلمة موشومة بالشك. متى قررت أن تقدم شهادتها هذه ؟ قد يعود ذلك – ربما- إلى زمن بعيد. فهي لا تعرف متى بالتحديد. ذلك أن طفولتها و طفولة هذه المراهقة تتداخلان في مخيلتها.

1997. تمتزج حياة مع الطفلة الصغيرة بطريق "فال" المحفوفة بالأزهار. كلاهما يبلغ من العمر أربع سنوات.

1950. طنجة المدينة العالمية. تتراءى لحياة تلك الطفلة الصغيرة التي كانتها في الماضي، و هي تجري في الحقول بين أزهار النرجس. تغوص قدماها الصغيرتان القويتان في الوحل على حافة البركة. تمد يدها لتقطف زهرتين من السوسن الأزرق، تلعبان معها منذ بضعة أيام، لعبة الغميضة. يمر الأوتوبيس الإسباني في الطريق المعبد البعيد. تبتسم الطفلة الصغيرة. إنه يوم الجمعة. يوم العطلة. لقد ذهبت يمّا لالا إلى المقبرة للترحم على روح الشريف. لذلك، سمحت الطفلة لنفسها أن تقضي صباحا مفعما بالحرية ما بين الحقول، رفقة الزهور و الطيور، و على حافة الغابة التي تمنعها جدتها من الدخول إليها. من حين لآخر، تنظر إلى الأفق البعيد. تحدق فيه لحظة، ثم تخفض بصرها و هي تشعر بالصدمة. منذ أن طلق أبوها أمها، و هي تنتظر زيارته لها رفقة معزتها الصغيرة مسعودة.

" في تطوان، الزمن يمر. سنتان و بضعة أشهر، و أنت عزيزتي كاميليا، لا تزالين حبيسة الجدران. أدرع أحيانا، الشارع الكبير الذي يقع فيه السجن. ألمس خفية جداره العالي بأصابعي و أحيانا بنظراتي. أكيد أنك تسمعين ذبذبات سيارتي و سيارات الآخرين. أكاد أجن لمجرد التفكير في أنك تؤدين الثمن بدل إنسان آخر، بل و بدل آخرين ينعمون بالحرية في إسبانيا أو في بلدان أخرى. "لقد كنت شريكة لهم" يقولون. و لكن، هل يمكن أن تكوني شريكة في الجريمة، و أنت في سن الرابعة عشرة، في مقتبل العمر، غارقة في حب ذلك الوغد ؟ في البداية كنت خائفة عليه. لكنه لم يأت أبدا، لرؤيتك و لم يبعث بأية إشارة لطمأنتك. كانت الإشاعات تروج بأنه اختفى عن الأنظار. و كل الذين كنتما تختلطان بهم من رجال الشرطة و رجال الجمارك و أعوانهم غادروا أماكنهم. هل انتقلوا إلى أماكن أخرى؟ هل عينوا في مناصب جديدة ؟ لا أحد يعرف الحقيقة. لقد تحولوا إلى مجرد أشباح لم يسبق لها أن وجدت فعلا ! ما تقولينه يا ابنتي، مجرد أوهام ! فأنت، لم تتناولي الطعام معهم على نفس المائدة و لم ترينهم أبدا أبدا ! أتسمعين؟ وجوههم، أصواتهم، ضحكاتهم، كل ذلك مجرد خيال، و عليك نسيانه. أما وجودك أنت، فحقيقة ثابتة. و على العدالة أن تقول كلمتها في حقك. هكذا كان يصيح القضاة في قاعة المحكمة بلهجة مصطنعة و نظرات قاتلة. و ينزل العقاب عليك. خمس سنوات سجنا نافذا ! ما خلقت القوانين، يا ابنتي، إلا للضالين أمثالك !..
أخبرتني جدتك أن جسدك أصبح نحيلا، خلال الأشهر الأولى من سجنك. و أنك رفضت تناول الطعام، و استسلمت للموت. أخبرت إدارة السجن عائلتك و قامت بتحذيرك: "ستجدين نفسك ذات يوم، مرمية وسط النساء المجنونات اللواتي يتم جمعهن من الشوارع !"
نصحتك الخالة قائلة: " تشبثي بأمك و بنا جميعا يا ابنتي. منذ سنة، و والداك يستدينان ليوكلا لك محامين أكفاء، و يتعرضان للنصب و الاحتيال. الفقر يتربص بإخوتك. و أبوك المسكين يكدح ليل نهار، طيلة الأشهر الأخيرة، في بواخر الصيد الإسبانية، لمواجهة هذه الكارثة. فلتكوني شجاعة يا ابنتي ! و لتستعيدي ثقتك بنفسك !"

مرت ستة أشهر أخرى. و بدأت الحياة تدب في جسدك، شيئا فشيئا. صرت تشغلين وقتك مثل سائر السجينات. تطرزين و تنسجين لوحات رائعة بخيوط مرصعة. فابتعد الموت عنك بخطى حثيثة، و تلاشت لحظات اليأس بسرعة. كنت تغرقين مرارتك في تلك الخيوط الملونة التي تنير يديك. خلقت عالما على مقاس زنزانتك. عالما ضيقا تحكمه الممنوعات و القوانين الجائرة، و لكنه مسكون بألوان زاهية بفضل براعتك. إذ ترتسم أصابعك الماهرة فوق قطعة القماش الأبيض، أشكالا عديدة مختلفة الألوان. و كلما انتهيت من لوحة ما، استرجعت عيناك بعضا من بريقهما. تسرب الأمل إلى روحك. و أسرعت الإبرة بين أصابعك ، و أنت داخل الجدران العالية، لتقود خطواتك نحو بوابة التحرر. و بدأ الحديث يدور عن تخفيض مدة سجنك نظرا لحسن سيرتك و سلوكك ! أهي مجرد أقوال تطلق في الهواء أم طريقة من الطرق التي تلجأ إليها الإدارة عادة ؟ و مع ذلك، فقد تم التنويه بأعمالك من طرف معرض الدار البيضاء و معرض القنيطرة. و تحدثت الجرائد عن إنتاجك و نشرت على صفحاتها صورتك. و عاد الأمل يسعى إليك على رؤوس أصابعه. و مع ذلك، كان عليك أن تكوني حذرة ! و انتظرت...
توالت السنوات، يا صغيرتي كاميليا، و أنت تنتظرين دائما ذلك الخبر السار. كانت لوحاتك تعرض في المعارض، و توثق، و توضع في إطارات، و أحيانا تباع. و أمك المكلومة، لا تتوقف عن مواساتك، راسمة الابتسامة على شفتيها:
- كوني شجاعة، يا ابنتي، قريبا سيأتي الفرج. ستعمل فترة الاعتقال هذه على تضميد الجراح التي خلفتها أخطاء الماضي، و ستعلمك كيف تتحملين المسؤولية مستقبلا..."

في نفس اليوم الذي سمعت فيه حياة بذلك النبأ المشؤوم، ذهبت إلى سينما "أفينيدا" بتطوان، رفقة دجونا صديقتها الأمريكية التي جاءت للمغرب لزيارة الكاتب الأمريكي بول بولز صديق عمتها من أيام الشباب. أحست حياة بالخجل من هذه القضية التي أربكتها. حدثت صديقتها بشكل خاطف عن كاميليا و هما داخل المرافق العمومية. تحدثت بسرعة، عن البراءة المشوهة، ثم قالت في نفسها: " ستجدني دجونا بلا شك، غريبة الأطوار و مختلفة عن تلك المرأة التي عرفتها في نيويورك... ما التزامي إلا مجرد خديعة ! كل شيء وهمي ! هناك فرق شاسع بين الخطابات الرسمية و ما يحدث على أرض الواقع."
و مع ذلك، تعاطفت دجونا بصدق مع كاميليا. فيا لسخرية القدر ! إنها المرة الثانية التي تنفجر فيها حياة باكية أمامها، في قاعة السينما. كانت المرة الأولى حسب ما تذكر، أثناء عرض فيلم "الليالي المتوحشة" في قرية غرينيتش بنيويورك. احتمت حياة بالقاعة المظلمة، لتطلق العنان لدموعها و هي تتابع ما يحدث لأمينة، بطلة فيلم "الليلة المقدسة". كل شيء يبدو لها عبثيا، على بعد خطوات من قريبتها القابعة في زنزانتها.
تلك الليلة، تقلبت حياة في فراشها طويلا، قبل أن يزورها النوم. لماذا تجد نفسها دائما مطاردة من طرف هذه العائلة المحافظة ؟ لماذا يريدون كلهم، أن يفرضوا عليها نمط حياتهم و تفكيرهم ؟ تحاول أن تشرح لهم بواسطة الأمثلة. أن تذكرهم بحالات مماثلة في أماكن أخرى و في عائلات أخرى. تستعين بالمسلسلات التلفزيونية المكسيكية و البرازيلية التي يعشقونها جميعا. ترتفع حدة لهجتها. لكن آذانهم تظل مغلقة. يقولون بأنهم طعنوا في شرفهم، و أهينوا في كرامتهم لكون

أحد أفراد العائلة يهتم بهذه القضية الدنيئة. و حياة محامية سيئة. نموذج سيء. لذلك لم تستطع إقناعهم، و لم يجد استعطافها و طلبها الرحمة و الغفران سبيلا إلى آذانهم. "لا تسامح مع هذا النوع من الفتيات." يقولون. و هي نفسها في نظرهم، قد تخلت عن مبادئ العائلة و أصبحت مزعجة بكتاباتها. فيا للعار الذي لحق ببني عروس المحترمة ! أما أجدادها من جهة الأب، شرفاء سيدي المختار بمنطقة الحوز، فإنهم و لا شك، يتقلبون في قبورهم !
راحت حياة تستنجد في صلواتها، بجدها من أمها الذي مات قبل أن تولد. أحست أنها عادت، عبر الذاكرة، تلك الطفلة المحمية من طرف الوالي الصالح سيدي أحمد التيجاني. تشعر أنها على حافة الانهيار، و أنها لا تستطيع فعل أي شيء أمام هذه القدرة الهائلة على عدم التفهم و سوء النية ! لذا، تلجأ إلى الشريف الأكبر، تستجدي بركته و تتصدق بالنقود و تشعل الشموع في المساجد و الكنائس و تقول في نفسها: " الله يوجد في كل مكان، و يقف دائما إلى جانب الأبرياء."
اليوم، و هي تجلس في ظل شجرة التين، يبدو لها أنها تتلفظ بنفس العبارات منذ الأزل، و أنها تعيش نفس القصة منذ ربع قرن، و أن أيامها تتناثر داخليا، مقرونة بكلماتها و بالألم الذي تعبر عنه هذه الكلمات.
لقد دقت الساعة يا كاميليا. لقد جمعت حياة قطع طفولتك المتناثرة، ورسمت بعض ملامحها. و هي من الآن فصاعدا، تحملك بداخلها كما حملت أبناءها الثلاثة. تسمع صوتك ينبعث من أعمق أعماقها. يمزق عذابك أحشاءها و ينصهر صوتاكما ليصبحا صوتا واحدا.

" كاميليا، سأرافقك في مسيرتك المأساوية إلى أن تحصلي على حريتك. سأروي قصتك كما حكيتها أنت. يجب أن نحكي ذلك، و أن نحطم جدار الصمت. يجب أن تتعلمي من جديد قطع الحبل السري الذي يربطك بذلك الحب اللعين. لا يهم ما تعانينه حاليا، و لشهور طويلة أخرى قادمة. ستصبحين ذات يوم، سيدة مصيرك. و سأكون أنا من يعبر عنك خلال هذه المرحلة التعيسة من حياتك التي تقضينها وراء القضبان."

هكذا، و على امتداد سنوات، ستعمل حياة عن طريق سرد حكايات نساء أخريات، أن تخفف بعض الشيء عن الفتاة الصغيرة. ترسم أمامها الأمل في المستقبل واضعة البلسم على جراحها النازفة. تريد أن تهيئها للواقع المر الذي ينتظرها خارج السجن. ستعمل الخالة و حفيدتها على فك الخيوط غير المرئية التي تجعل الطرق تلتقي و الحيوات تتعثر و تقع في المحظور.

" في سنة 2003 ستبلغ كاميليا، مثل مون، الثلاثين من عمرها. و سيكون عليها آنذاك، أن تكتشف الكثير من السنوات الجميلة التي لا تزال أمامها. أتمنى أن تظل ركبتاي قويان بما فيه الكفاية، لاستقبال وجهها الطفولي و مداعبة شعرها الكستنائي." قالت حياة تحدث نفسها.
ذلك أن حياة نفسها، قد تعلمت الشيء الكثير في الثلاثين من عمرها، و بدأت معركتها الحقيقية بتشجيع من رفيقها و التزامه. و تحمد لله على كونها وجدت طريقها إلى الكتابة، رغم سخرية أصدقائها اللاذعة و انتقادات أفراد عائلتها

الكبيرة. لقد اختارت، و بإصرار شديد، نمط حياتها الخاص. لذا، تريد أن تنقل إصرارها هذا إلى كاميليا و إلى كل النساء اللواتي لا يتوفرن على الثقة الكافية بالنفس.

" إن الفن الذي تمارسينه، يا ابنتي، سيساعدك كثيرا. و ملامسة أصابعك لنسيج لوحاتك سيقود خطواتك نحو الثقة بالنفس. كاميليا، يا زهرة الريف الصغيرة، في عروقك، سيجري صحبة دمك الذي تشرب بروائح الكيف منذ الطفولة، ذلك السيل من الإحباط و عدم الثقة الذي يميز سلوك الجماعات التي ظلت لزمن طويل تعيش على الهامش نظرا لوجود قضايا مستعجلة على ما يبدو، في مناطق أخرى من المملكة. فهل ستقوين على تحمل نتائج هذه الضريبة الثقيلة، يا ابنتي العزيزة ؟ لقد أردت أن أشرح هذه الأمور لبنات خالاتك، لكن هيهات ! أحس أن كلماتي معهن، تفتقر إلى قوة الإقناع. أما البرامج التربوية، فهي مع الأسف الشديد، قاصرة في هذا المجال. ذلك أن الحديث عن الخسائر الجسيمة التي تتسبب فيها المخدرات، لا يزال من الأشياء التي يمنع الخوض فيها. "إنها قضية معقدة" يتهامسون فيما بينهم. و ما لم تتبلور نقاشات جريئة حول الموضوع، فإن المخدرات ستظل تلتف كالأخطبوط، حول مدننا القديمة و أحياء الصفيح و القرى. إن حصيلة الخسائر مرعبة و المآسي تعد بالملايين. المخدرات لا ترحم أحدا. لا أبناء الفقراء و لا أبناء الأغنياء.

## الشباب بين سندان النسيان و مطرقة الانحراف

انطلقت صفارة المعمل المجاور تخترق السماء الملبدة بالغيوم. قفز سليم تلقائيا من فراشه، مشوش الأفكار، يسيطر عليه إحساس بأن الأيام المقبلة ستغير حياته. شد سروال منامته، التي سقط زرها بالأمس، بواسطة عقدة جانبية. اتجه نحو كوة صغيرة. فتح الباب، فصفع وجهه برد قارس جعله يستيقظ تماما. الساعة السابعة صباحا. سيتأخر مرة أخرى، عن درس الرياضيات. لكن السيدة أجَنّة، لحسن الحظ، امرأة لطيفة. أحس بالألم في كليتيه. ينتابه هذا الألم دائما، بسبب سيارات المرأب. يا إلهي، أين دفتر التمارين؟
لبس بسرعة سروال الجينز البالي، و أدخل يديه في سطل ماء مثلج ليغسل وجهه. بدأت الأشياء حوله، تتضح شيئا فشيئا: سرير من أسرة المعسكرات يوجد في الركن القصي من الغرفة، هيدورة ، إزار باهت الألوان يبرز من تحت لحاف من الصوف يعتبر التذكار الوحيد الذي بقي له من أمه. بالقرب من السرير، توجد أريكة و مائدة صغيرة سوداء تتوسط زربية من زرابي تزنّاخت، أهدته إياها إيمي زهرة أم صديقه تيمون. بدأ النور يتسرب إلى الركن المخصص للمطبخ، و الذي تتناثر فيه بعض الأدوات المنزلية: كسرولة، غلاية ماء من النحاس الأحمر، ثلاثة صحون مسننة و بعض الكؤوس و الملاعق و موسى صغير.

توصل أخيرا، إلى العثور على قلم أخضر. وضع قدميه في بلغة صفراء، و ألقى فوق صدريته الحمراء سترة لم يعد لونها الأصلي معروفا. قبل أن يخرج، ألقى نظرة فاحصة على الغرفة. كل شيء على ما يرام !
الضباب يغطي الشارع. أهالي بني امكادة يتخبطون في كل اتجاه. وضع سليم عشرين سنتيما قرب المقلاة الكبيرة لبائع "السفنج". بعد ذلك التهم " سفنجته" بشراهة. رائحة العجينة المقلية تدفئ قلبه. لحس أصابعه قبل أن يمسحها بحركة آلية، في سرواله.
يجب أن يسرع الآن، حافي القدمين، عبر الحقل الموحل، ثم يتوقف عند النافورة ليغسل قدميه و يلبس بلغته.

" نعم، يا أبي، لقد كنت دائما تقول بأن لا شيء يجعل الإنسان نبيلا أكثر من الفقر و الألم ! و لكن، كيف يمكن للإنسان أن يكون نبيلا و بطن أمه يتضور من الجوع ؟ لقد تألمتَ، يا أبي، يوم عذب الإسبان جدي بمدينة سبتة، بسبب قطعة الأرض التي تجاور حديقة القبطان الإسباني. لقد انتزعوا منه أرضه و بيته، و أخذوك، وأنت في السادسة عشرة من عمرك، لتعمل جنديا بجيشهم في الساقية الحمراء. حرموك من أمك التي أصابها اليأس، فعادت للعيش مع أهلها في مليلية. الأدهى من ذلك، أنهم أرغموك على أن تلبس زيهم الأخضر و أن تضع فوق رأسك قبعتهم الحمراء. و مع ذلك، لم يتمكنوا أبدا، من استقطابك إلى ما يسمونه ب "قضيتهم الكبرى". خلال الفترة التي كنت فيها بالمستشفى، لم أحتفظ منك إلا بشيء واحد ألا و هم نصيحتك لنا بأن نتعلم كيف نرفع رؤوسنا بكرامة. حتى الآن، أسمعك تكرر هذه المبادئ على "المويمة". كان المستشفى العسكري بتطوان قد أصبح منذ شهور طويلة، ساحة معركتك. فيه، كنت تعيد بناء وطنك في ذهنك. تعيد الاعتبار لذاكرة أجدادك. تخفف عن المجروحين الآخرين حواليك. تحكي لهم تاريخ بلادهم و أجدادهم. تعيد لهم كرامتهم. كانت أفكارك تدعم أفكار رفاقك. معا، كنتم ترسمون خريطة عمل المقاومة المستقبلية. شجاعتك تضمد جراحهم، و كلماتك تعيد إليهم الثقة بالمستقبل.

وذات يوم، ماتت أمي بتطوان قبل عودتك. لقد أصابها اليأس عندما انقطعت أخبارك عنها و أصبحت في حاجة ماسة إلى المال. لا زلت أذكر أني في فصل الصيف، و مع قدوم أغنياء الدار البيضاء، كنت أبيع باقات من الكرفس في السوق المركزي و أحمل سلال السيدات الجميلات صاحبات سيارات المرسيديس السوداء. أولئك اللواتي كن يتوفرن على سائقين و يلعبن دور الكرماء و هن يضعن في يدي تفاحة. كنت أنبهر بابتساماتهن الجميلة. أسنانهن تلمع. أظافرهن تغطيها طبقة من الطلاء. يلبسن جلابيب شبيهة بالتي تلبسها عارضات الأزياء. كن كريمات معي. يمنحنني درهما نظير حملي سلتين كبيرتين، وقيامي بإفراغهما مرات عديدة في صندوق السيارة. أحيانا، تمنحني بعض هؤلاء النساء الجذابات و المعطرات حد إصابتك بالإغماء، موزة أو بعض حبات من التوت. فواكه لم أكن أعرف مذاقاتها من قبل. غير أني مع ذلك، كنت أستعمل وسائلي الخاصة للحصول على المزيد. كانت الضرورة تحتم علي ذلك. أتحايل عليهن أثناء وزن الخضر، لكي أضع خفية في جيوبي، بعض حبات البصل أو الجزر. منذ ذلك الوقت، و أنا أعتني بأمي. أصنع لها في ليالي الشتاء الباردة، حساء من الخضر التي أدت ثمنها النساء

الجميلات ذوات الابتسامة المضيئة. و عندما كان ألم ركبتها يشتد، أحكي لها ما قرأته في دروس التاريخ و الجغرافيا، فإذا بها تنصت إلي ملتقطة كل التفاصيل. أحيانا، تطرح علي أسئلة حول الموت، فلا أعرف بماذا أجيبها. كثيرا ما كانت تحدثني عنك يا أبي، و هي ملفوفة في منديلها العريض المخطط بالأبيض و الأحمر، تحرك بقضيب حديدي بعض الجمر في الكانون. من حين لآخر، ترمي فيه قطعا من الشب ما إن تلامس النار حتى تتخذ أشكالا مختلفة. كانت تفسر هذه الأشكال على أنها العين التي أصابتنا بعد ذهابك. تفسيرات تبهرني، فأبيت أفكر في العين الرمادية التي تنفجر في الكانون حتى وقت متأخر من الليل.
نعم، يا أبي. لقد حدثتني أمي كثيرا عن أصولك و طفولتك بسبتة، تلك المدينة الغامضة الغريبة التي لم يسبق لها أن رأتها، و مع ذلك كانت تصور لي كل مكان فيها تصويرا دقيقا: واجهة البحر، ساحة أرمادا، أفينيدا، شاطئ الصيادين، ممر المهربين، المرسى الغاص بسمك " الكمباس و الكلامار" ، و خاصة السوق المركزي حيث السوق السوداء للعملة الصعبة و البضائع المعدة للتوجه إلى تطوان.
كانت نظرتها تلمع و هي تحدثني عن كل هذه الروائع، وصوتها يتهدج و الكلمات تخرج بسرعة من فمها. كنت أعيش بكل حواسي، تلك اللحظات الحميمة التي تقربنا منك أكثر فأكثر. كانت تهمس لي: " والدك شجاع يا بني. إنه يكدح من أجل الحصول على حريته و حرية بلاده. إنه رجل عظيم، محب لوطنه و وفي لجذوره. إن الكرامة يا بني، أخت الشجاعة."

كان باب الثانوية مشرعا، و الحارس العام يقف وسط الساحة. قامته قصيرة و نظارته السوداء مثبتة فوق أنفه. قدماه متباعدتان. بطنه بارز أمامه و يداه متشابكتان وراء ظهره. هكذا كان يراقب بصرامة دخول التلاميذ. تسرع بعض الفتيات عند رؤيته إلى تثبيت أزرار وزراتهن. وتضع أخريات ملفات فوق صدورهن تورعا. ذلك أن نظراته الثاقبة المصحوبة بسيل من الشتائم، تخترق على امتداد النهار، الأجساد المرتعشة لهؤلاء المراهقات.
قبل أن يتجاوز عتبة الباب، أزال سليم، بمرارة، قبعته الزرقاء. فهي تحميه في الليل من البرد و من الفئران التي تزوره في المرأب كل ليلة. سقطت خصلة سوداء فوق عينيه. لا يمكن لسليم بقامته المتوسطة و حيويته، أن يمر دون أن يلاحظه أحد. نظراته الصافية و الحالمة في نفس الوقت، تعطي الانطباع بأنه مراهق رومانسي. في الفصل، عندما يقضم أظافره، تبدو عليه علامات القلق، فتزداد حركاته اضطرابا و عصبية. و يبدأ في تمرير يده فوق صدره بشكل آلي. إنه يشعر بوطأة توزعه بين الدروس التي يحضرها بالثانوية نهارا و بين حراسة المرأب الذي تمتلكه لالا حياة، ليلا.

نوفمبر 1975. تاريخ لا يمكن لسليم نسيانه أبدا. كان الشباب التطواني، ذلك الصباح الخريفي، يتزاحم أمام البوابة الكبيرة للمحطة، ليصعد القطار المتوجه نحو الصحراء، بعدما دقت ساعة التجمع الكبير في كل أنحاء البلاد.
راح سليم هذا المساء، يتأمل ماضيه البعيد و هو يجلس فوق برميل تحت عريشة مزهرة و ينظر إلى كريملة – الذي لا تعكس ملامحه أي سن - يلعب و يردد أغنية شعبية. لقد أربكه قدوم إيمي زهرة المفاجئ من الأطلس، و هو على أهبة

مغادرة عمله عند لالا حياة لمتابعة دراسته في الفن التشكيلي. كما أنه لم يتمكن بعد، من نسيان الموت المأساوي لصديقه تيمون الذي زاره بالمرأب مباشرة قبل حدوث المأساة. كان يبكي و هو يتأبط عوده. عندما ماتت جدته، رمى به خاله المزعوم إلى الشارع. و لم تطأ قدمه أبدا، المنزل عندما علم أن ذلك الرجل- و هو قواد - يريد أن يلحقه كعازف، بفرقة من فرق الفولكلور الشعبي بالأطلس. في نفس ذلك اليوم، اكتشف أن أمه تعمل شيخة بنفس تلك الفرقة !...

في تلك الفترة كان سليم يحس بالتعاطف معه. يجالسه في ساحة المرأب، يستمع إليه و هو يعزف مقطوعات موسيقية على آلة العود. كان في حضوره، ينسى كل همومه: أسرته الفقيرة. تطلعه إلى دخول مدرسة الفنون التشكيلية ...

" تيمون، يا أعز أصدقائي، يا من التقيت به فوق كثبان الرمال مع متطوعين آخرين يوم التجمع الكبير، لقد تركت فراغا مهولا في حياتي !..." قال سليم في نفسه و تنهيدة حارة تصعد من أعماقه.

# الشيخة إيمي زهرة

( افعل في الحياة ما تعرف. أما أنا، فأغرق العالم بشدوي.)
- أغنية بربرية -

في غياب سليم، أصبحت حياة تعتني بنفسها، بسيارات الزبائن و هي غارقة في التفكير. و هذا الصباح، بينما كانت منهمكة في إزالة الوحل الملتصق بالزجاج الأمامي لسيارة رونو 6 التي يمتلكها أحد زبائنها القدامى السيد زيدون الذي يترك عادة، سيارته متسخة و يوقفها بشكل فوضوي، لمحت قدمي امرأة تنتعل بلغة حمراء تقفان أمامها. توقفت عن دلق الماء على السيارة. مسحت العرق المتصبب من جبينها. ثم رفعت رأسها لتجد أمامها امرأة تلبس جلبابا أسود و تضع فوق كتفيها شالا حريريا وردي اللون. تغطي وجهها طبقة سميكة من المساحيق تبدو معها كإحدى ممثلات المسلسلات المصرية. غير أن وشما جميلا لم تستطع البودرة أن تغطيه تماما، ظل يزين وجه هذه المرأة الغريبة.

- لا لا ؟ سألتها حياة و هي تضع ذراعها فوق جبينها.
- أنا زهرة، أم تيمون. هل نسيتني؟

ارتمت حياة بين ذراعيها متأثرة.

- سامحيني إيمي زهرة، لقد مر وقت طويل ! متى وصلت؟
- هذا الصباح. لكنني مررت أولا على المقبرة. قالت و هي تخفض بصرها، و في صوتها غصة.

- كنت أحب تيمون كثيرا. لقد كان فتى لطيفا. لم يكن قبل المأساة، يفارق سليم أبدا خلال العطلة الصيفية، لدرجة أنني اضطررت إلى أن أخصص لهما الغرفة الصفراء الواقعة فوق المرأب.
- شكرا يا حياة. قالت أم تيمون بصوت متهدج و متقطع. أنا السبب في موته. لقد تركته يعيش وحيدا، بعيدا عني. و لكن، لم يكن لدي خيار. كنت أريده أن يتعلم، لأني أعرف مدى جديته.
- كان جادا فعلا إيمي، و لم يكن يعيش إلا من أجلك.
- اعذريني يا ابنتي، فأنا جد متوترة. هل يمكنني الجلوس في مكان ما ؟
- طبعا. تعالي معي.

أدخلت حياة إيمي زهرة إلى منزلها. كانت الدموع تنساب بغزارة من عيني هذه المرأة المحطمة، التي تشي ملامحها بجمالها الأخاذ في مرحلة الشباب. تحول الوجه الجميل إلى مزيج من الألوان السوداء و الحمراء و الزرقاء.

- آه يا ابنتي، أحمد الله أن تيمون لم يعلم أبدا مدى المعاناة التي عانيتها لأوفر له إمكانية التعليم الذي يستحقه. فالحياة جد قاسية بالنسبة للشيخات أمثالي.
- مع أن عائلتك كانت موجودة.
- نعم. و مع ذلك، كانت حياتي مع الأسف، عبارة عن واد طويل تحفه المآسي من كل جانب. اليوم كل شيء انتهى. ستتغير أشياء كثيرة. أخبريني. أ لا يزال اقتراحك قائما؟
- بالطبع إيمي... استريحي الآن، و سنتحدث في الأمر فيما بعد.

صعدت حياة بسرعة إلى الطابق الأول لتعد غرفة الأصدقاء، تاركة إيمي زهرة جالسة في حالة من الارتباك، على حافة الأريكة بالصالون.

" كاميليا، أشعر بالألم و في نفس الوقت بالإعجاب بإيمي زهرة التي تحاول أن تستلهم الحكمة من حياتها الممزقة، منذ مقتل ابنها الوحيد على يد عصابة تجار المخدرات المتواجدين بضواحي المدينة. أصر على أن أشركك معي في هذا الجرح، متمنية أن يسجل في الذاكرة المتقلبة لأولئك الذين لا يرون في الشيخات سوى وسيلة للترفيه الفلكلوري. سأحاول أن أنقل آثار كلمات إيمي زهرة دون أن أخون ثقتها."

لا تزال إيمي زهرة، رغم وهنها الجسدي و النفسي، تتشبث بخيط لا مرئي يساعدها على الاستمرار في الحياة. لا تزال مسكونة، ومنذ سنوات طويلة، بتلك الرغبة الجامحة في أن تتحر من براثن لالا فاطنة القوادة، التي تتحكم في أجساد الشيخات و جيوبهن. لقد هربت مرارا، بعدما أصبحت لا تطيق حياة الفسق و الفجور. سعت جاهدة كي لا تعود إلى القرية أبدا، آملة في بدء حياة جديدة. لكن حبها لتيمون كان أقوى منها. و رغبتها في تعليمه كانت تدفعها إلى التراجع عن قرارها. كانت في حاجة دائمة إلى النقود. ثم كيف يمكنها العيش بعيدا عن القرية، و طريقها محفوف بالمجهول و الخوف و الوحدة و الرفض الاجتماعي ؟ كيف يمكنها العيش بدون حماية ؟ و مع ذلك، لم تكف يوما عن الحلم بالمدينة المنقذة، و هي ترسم ألف خطة و خطة في الليالي التي لا يحضر فيها أي زبون.

ذات يوم، استجمعت شجاعتها و سارت تقتفي خطى امرأة في موسم إيملشيل. لم تكن تلك المرأة سوى حياة التي جاءت رفقة ابنتها لإنجاز فيلم وثائقي. أثناء ذلك اللقاء، اقترحت إيمي زهرة أن تتحدث لها عن الوضعية التي تعيشها المغنية الشعبية البربرية. غير أنها اعترفت لها بعد ذلك في وقت متأخر من الليل، أن تلك الشهادة مجرد وسيلة للاتصال، و بطريقة مشرفة، بابنها الوحيد الذي يقيم مع إحدى قريباتها بالمدينة. تريد أن تعلن أمامه الحقيقة. لذا، كانت مستعدة لفضح الأساليب القذرة التي راحت ضحيتها، و للحديث عن الألم الجسدي و النفسي الذي تتعرض له الشيخات عن طريق الدسائس أثناء التظاهرات الفلكلورية. ظلت هذه الفكرة تلاحقها ليل نهار. أصبحت هاجسها الأكبر و أحد نقاط التلاقي بينها و بين حياة و ابنتها.

- نعم حياة. سأقل حافلة ميدلت و آتي بمجرد ما تسمح الظروف بذلك. قالت لها عبر الهاتف، بعد مرور بضعة أسابيع على لقائهما بأيت احديدو.

ثم انقطعت أخبارها. فقدت حياة كل أثر لإيمي زهرة مباشرة بعد موت تيمون في ظروف مأساوية. و ها هي هذا الصباح و دون سابق إنذار، تعود للظهور من جديد. ماذا يمكن لامرأة شابة من المدينة أن تفعل مع امرأة من البادية، خاصة إذا كانتا معا قد اقتسمتا حب و حنان الشاب تيمون الذي فقد إلى الأبد؟

مع سقوط الظلام، أخذت حياة إيمي زهرة إلى الغرفة الواقعة في الطابق الأول، و قد وعدتها بأن يظل أمرها سرا بينهما، على الأقل في بداية الأمر. كما تركت لها حرية اختيار الوقت المناسب لإجراء الحوار مع مون، مخرجة الفيلم الوثائقي.

في الأيام الموالية، لاحظت حياة من تصرفات الجيران، أن وجود إيمي زهرة بالحي يثير فضولهم، و أنهم يحاولون اكتشاف سر هذه الحركة و هذا الحضور للساكنة الجديدة، فنصحتها بأن تتجنب قدر الإمكان، التآلف مع البقال، ذلك الرجل الشهواني الذي يسيل لعابه بمجرد رؤية امرأة غريبة عن الحي. لكن إيمي زهرة، إضافة إلى مظهرها الغريب المثير، كانت تريد أن تغني و تعبر بصوت مرتفع عن حزنها و فراقها لأهلها، و أن تبكي ابنها الميت أمام الجميع !

بعد مرور أسبوعين على إقامتها عند حياة، أبدت رغبتها في الانتقال إلى الغرفة الصفراء التي تقيم بها السبتاوية منذ وفاة ابنها تيمون، فلم تتجرأ حياة على رفض طلبها. السبتاوية من جهتها، استقبلت القادمة الجديدة بمزيج من حب الاستطلاع و القلق. منذ خروجها من المستشفى، و هي تقيم عند حياة، لكنها ترفض أي اتصال بصديقات هذه الأخيرة، خاصة و أن مضاعفات الحادثة قد أضعفت جسدها. لذلك اعتبرت مجيء إيمي زهرة اقتحاما لحياتها الخاصة. لم تتعود على تحمل الضجيج الذي تحدثه الساكنة الجديدة إلا بصعوبة. و مع ذلك، كانتا معا تتقاسمان لحظات طويلة من الصمت، و كل منهما تقبع في ركن من أركان الغرفة. بدأ التآلف يسعى إليهما بخطوات خجولة. كانت حياة مقتنعة بأنهما ستتفاهمان في نهاية المطاف. ذلك أن أحداثا كثيرة تقرب بينهما.

- لالا حياة، أريد أن أغني بصوت مرتفع. قالت إيمي زهرة ذات يوم، بعد مرور شهر على قدومها إلى طنجة. حلقي يدغدغني و حبالي الصوتية تهتز رغم أنفي !
- غني، و لكن بالنهار فقط، عندما تكون أجهزة الراديو تصدح بأعلى صوتها عند الجيران و في الوقت الذي تكون فيه السبتاوية في المستشفى للقيام بحصص الترويض.

انتاب حياة القلق من رغبة إيمي زهرة في الكشف عن كل شيء أمام الكاميرا. لقد أدركت أن صديقتها هذه التي هدها سهر الليالي، و التي تجدها جد متحمسة للوقوف أمام كاميرا التلفزيون، تحس بالمتعة و هي تتحدث عن أدق التفاصيل بخصوص استغلال الفتيات بمنطقتها. لم تترك شيئا في الخفاء. تتملكها رغبة قوية في الكشف عن العنف الذي تتحمله أخواتها، بنات جبال الأطلس المغمورات.
كانت حياة فعلا، متأثرة و راغبة في تحقيق رغبة إيمي زهرة في البوح. لكنها أيضا كانت تسعى إلى أن تضفي على هذا المشروع صبغة إيجابية بحيث يعمل في نفس الوقت على كشف حقيقة استغلال "المغنيات الشعبيات" و إثارة اهتمام أصحاب القرار إلى تقييم الأغاني البربرية و إبراز أثرها الاجتماعي و الثقافي. ذلك أن توظيف هذا الفن في مهرجانات رخيصة إساءة إليه.إضافة إلى أنها ترفض الانزلاق نحو التباكي المجاني.
تريد إيمي زهرة أن تقدم شهادتها وفاء لروح تيمون، و ستقوم بذلك بكل كرامة كما وعدتها حياة. ستساعدها على التعرف على الأماكن التي عاش فيها تيمون و اتباع مساره في طنجة.

- هذه الشهادة المتلفزة ستكون هدية مني لروح ابني تيمون الذي مات قبل أن يرى وجهي النظيف و جسدي المتحرر من كل عبودية.

أحيانا تطفو سحابة سوداء فوق نظرات هذه المغنية. سلوك حياة يربكها، فتتساءل بداخلها: " لماذا تريد هذه المرأة مساعدتي؟. لماذا تهتم بكل النساء المصدومات في الحياة ؟ لا شك أن وراء ذلك سرا ما في حياتها، و أن كرمها هذا، يخفي جحيما من السخط و عدم الرضا. أكيد أنها ليست بنفس القوة التي تبدو بها ظاهريا ! " عاهدت نفسها على أن تظل إلى جانب صديقتها الطنجاوية مهما حدث.

كانت إيمي زهرة، أثناء الحوارات المتوالية، تبوح بكل شيء و بحرية تامة، مما ساعد حياة على بناء حبكة السيناريو الذي سيؤثث الشهادة المرئية، بكل دقة. أحيانا، تشاركهما مون هذه اللحظات الحميمة، دون أن تتدخل. فكونها محترفة، يجعلها تحترم تعرية النفس التي تقوم بها الكائنات الممزقة روحا و جسدا. تستمع دون أن تقاطع الصديقتين اللتين تربطهما لحظات البوح القوية هذه، كما يربط الزمن بتواطئه العنيد، مصيريهما بشكل غامض.

" يوم تزوجني الرجل الأول البالغ من العمر ستين سنة، لم أكن قد تجاوزت بعد، الثانية عشرة. و عندما طردني من بيته بعد ثلاث سنوات، أصبح سكان قرية تيزرو يشيرون إلي بالأصابع. فأنا مجرد عاقر، و لا مكان لي بينهم. مكاني يوجد في دور الشيخات. ذات يوم، بعثتني أمي إلى سوق أغلاّ و هي تقول: "حاولي البحث هناك عن "باطرونة" لتشغلك في الحال، و لا تعودي أبدا إلى هنا، أيتها العاقر ذات الرحم الجاف."

ذهبت و أنا أبكي وأشهق، ملفوفة في حنديري. كان الفصل ربيعا، غير أن الجو مع ذلك،لا يزال باردا. سرت على قدمي حتى ملتقى الطرق الذي يؤدي إلى الريش، و جلست فوق حجارة. كانت حافلات مليئة بشبان مرحين تمر أمامي، فيشيرون

إلي أن أتبعهم. بعد مدة، توقفت أمامي سيارة سائحين أجانب يحملون آلات التصوير فوق أكتافهم. كان شعرهم أشعثا و نظاراتهم سوداء و ملابسهم مغبرة. اقترحوا علي أن يحملوني معهم حتى السوق، فوافقت. عندما وصلنا هناك، تركوني و واصلوا طريقهم. أحسست بالدوار وسط ذلك اليم من البشر. اقتربت من امرأة عجوز تستند إلى جدار أحد المنازل، يبدو عليها الإجهاد. كانت تغزل الصوف. حدقت في عيني ثم قالت:

- آه، يا ابنتي الصغيرة ! جاء دورك اليوم ! فلتكوني شجاعة ! إن لكل إنسان مصيره، فلا تخافي. ستصبحين ذات يوم، أمّا. افتحي ذراعيك للطفل الذي سيأتيك. سيكون طفل النور.

ثم انحنت على عملها و نستني تماما. أربكني وجهها المحفور أكثر مما أربكني كلامها. ما كدت أجلس بجوارها حتى اقترب مني شابان يلبسان الجلباب و يضعان الطربوش فوق رأسيهما. أشارا إلي أن أتبعهما. أصبت بالهلع، فانطلقت أجري في اتجاه سوق البهائم.

هناك، اقتربت مني امرأة تبدو قوية. و بصوت عذب قالت:

- هل أنت زهرة ابنة لالا هنو ؟ تعالي معي يا ابنتي، فمكانك ليس هنا وسط هذه الحيوانات المفترسة.

تبعتها إلى خارج السوق حيث يوجد منزل من الطين. بداخله فتيات جميلات يرفلن في دفينات متلألئات، و يضعن حول أكتافهن و خصورهن حبالا حريرية، و تزين الحناء أيديهن و أقدامهن، و يغطين رؤوسهن بمناديل رائعة ذات أهداب حمراء و خضراء و زرقاء. أحسست بالارتباك و بالخجل من هاته النساء الجميلات جدا ذوات الوجوه الموشومة و المفرطة في الزينة. قدمتني لالا فاطنة إليهن، و دعتني إلى الجلوس قائلة: " ضعي ثقتك فينا يا ابنتي، فنحن نعرف قصتك. ستبقين معي. و سأكون أمك الثانية." ثم ضاعفت من اهتمامها بي. و في المساء، جاء رجل في الأربعين من عمره، أعور، يلبس جلبابا بنيا و يضع قبعة بيضاء. دخل إلى الغرفة محدثا الضجيج. أسرعت لالا فاطنة تقدم له الشاي و الفطائر و هي تسأله:

- هل سارت الأمور على ما يرام؟
- بدون أدنى مشكل. سيكون ذلك حوالي العاشرة هذا المساء.

همست شابة تجلس بجانبي تبدو عليها ملامح الطفولة، بلهجة مرحة:

- يا ليل يا عين ! سنستقبل ضيوفا هذه الليلة ! يا للحظ السعيد ! يبدو أنهم أثرياء من بني ملال و قصبة تادلة، و يملكون أراضي شاسعة.
- و لكن هذه الأراضي هم الذين يملكونها. قلت بسذاجة.
- طبعا. و لكن، من يدري. قد تكون لهم علاقات بأناس رفيعي المستوى. فأنا أحلم بالمشاركة في المهرجان الوطني للفلكلور. إذا أعجب بنا أحد الأغنياء أخذنا معه. فهذه الفرق تسافر كثيرا و تزور العواصم الكبرى. يذهبون حتى " مَريكان و اجّابّون".

أحسست بالاضطراب و أنا أسمع هذا الكلام. مر كل شيء كما توقعه صاحب القبعة البيضاء، منسق الفرقة. طيلة الليل، و الرجال يتوافدون على المنزل، و صدى الرقصات و الأغاني يتردد في أرجاء جبال الأطلس المحيطة بنا. أحسست بالسعادة و بالراحة، خصوصا عندما أعطوني عجينا بنيا يسمى المعجون، مصنوعا

من التمر و العسل كما يقولون. رأيت الفتيات يتسللن بانتظام، إلى غرفة مجاورة للبهو الذي نوجد فيه، ثم يعدن أكثر نشاطا و يقظة. كانت النار المتقدة في برميل تضفي الدفء على الجو، فتغرق الغرفة في دخان الكيف و رائحته الممزوجة برائحة الأقدام و الشاي بالنعناع.

صباح الغد، استيقظت و أنا بين ذراعي رجل بشارب كث يغط في النوم. انتابني القلق، فرحت أبحث عن لالا فاطنة التي طمأنتني قائلة:

زهرة، يا ابنتي الصغيرة، أنت محظوظة. لقد أعجب بك هذا الرجل. أكيد أنه سيتزوجك قريبا، إذا عرفت كيف تعاملينه بلطف. له زوجتان، لكنه غني جدا. يملك الهكتارات الشاسعة من الأراضي المزروعة بالقمح، و مئات الرؤوس من الأغنام و الأبقار.

بدأت أبكي في صمت. انتهى كل شيء ! حياتي لم تعد - و لن تعود أبدا - ملكا لي ! كان بيتنا أيام الأسواق، قبلة للرجال السمان الذين تتغير وجوههم في كل مرة. أما الرجل صاحب الشارب الكث و الأراضي الشاسعة، فلم أره بعد ذلك أبدا.

- هكذا ولد ابني تيمون. كنت سعيدة بأمومتي إذ اكتشفت أني لم أعد عاقرا، و لكني في نفس الوقت صدمت لكون أحدا لم يتقدم لخطبتي. فيما بعد، سلمت ابني لإحدى صديقات لالا فاطنة تقيم بطنجة. كان تيمون يعتقد أنها جدته. و البقية تعرفينها.
- إيمي زهرة، قالت حياة مترددة بعد هذا الاعتراف، أ ليس لديك أولاد آخرون؟
- لا. لم أكن أرغب بأي وجه من الوجوه، في إنجاب آخرين. لقد غمرني ميلاد تيمون بسعادة عارمة. لذلك ، تناولت عشبة معروفة في منطقتنا بإصابة من يتناولها بالعقم، و التي كانت الشيخات يتناولنها. كما شربت الماء من ثقب ركاب الفارس، لأزيد من شدة عقمي.
- و لماذا لم تحتفظي بتيمون ليعيش في حضنك ؟
- لم يكن لي خيار. أجابت بعصبية، و نظراتها إلى الأرض و أصابعها تضغط بكل قوة على محفظة نقودها. كان من الصعب علي أن أحرم من أغلى إنسان في حياتي. أن لا أستطيع مداعبته و حمله بين ذراعي و منحه حناني. و لكن، ما العمل و قد كنت ملتزمة مع لالا فاطنة ؟ لو فعلت، لاتهمتني بالسرقة أو غيرها من الأفعال الدنيئة أمام قائد القبيلة الذي كان يتردد على ماخورها باستمرار. ثم إني لم أفكر أبدا، في حرمان ابني من الدراسة. لذلك استسلمت لرغبات أولئك الأوغاد، و لسلطة تلك الغولة التي تستوطن جبال أغلا."

أحست حياة بقلبها ينفطر و هي تستمع إلى تلك الاعترافات. لو كان الأمر بيدها لفتحت عشرات المراكز لاستقبال كل النساء و الفتيات المعذبات اللواتي يتعرضن للعنف. انتابها القلق و هي تحس بضعف جسدها هذا الصباح. تساءلت إن كانت ستتمكن من إنجاز هذا التحقيق بالطريقة التي تريدها. فهي تعرف حق المعرفة بأنها لا تتحكم في كل مراحله. و مع ذلك، فهي متأكدة من معرفتها لما يثير اهتمام الجمهور، أي ترك الحقيقة تخرج بكل بساطة من أفواه أولئك النساء - و ما أكثرهن- اللواتي تحملن و لا يزلن، ظلم المجتمع لهن، و إعطاء الكلمة لكل من يرغب في المساهمة في بناء دولة الحق و القانون في هذه البلاد.

تتشبث حياة بإيمانها القوي بحركة التآزر و التعاضد التي تعم مجتمعها، و تطمئن إليها أكثر فأكثر. فالمجتمع المدني يتحرك. و مسيرة عهد التغيير انطلقت. غير أنها لا تعرف بالضبط  أي نوع من التغيير هو.
راحت تحلم بطنجة، مدينتها و مسقط رأسها. طنجة العالية، الشامخة في كبريائها، ذات الحدود المفتوحة في الماضي على الحوار. لكنها تعرف أن تحقيق مشروعها هذا، مرتبط كذلك بابنتها مما يجعل المهمة صعبة. فمتطلبات مون كثيرة، و هي مثالية جدا. و ما عادت حياة التي تتقدم في السن، قادرة على تحمل تلك المفاوضات الدائمة مع ابنتها البكر.
مرت ستة أشهر على مجيء إيمي زهرة،  و مع ذلك، لا تزال حياة تشعر بالقلق و التوتر. فهي مطالبة بإنهاء كل التفاصيل الدقيقة لعملية التصوير في أقرب وقت، و أن تعيد مناقشة الخطاب الذي تريد إيمي زهرة إيصاله. مجرد التفكير في هذا النقاش يجعلها تشعر بالإرهاق الشديد. و لا يمكنها التراجع الآن. ثم إن واقع الشيخات و الأشعار التي يتغنين بها يطاردها منذ زمن طويل. و لكن، كيف يمكنها أن تنقل جمال تلك الأحاسيس الشعرية دون أن تخون واقع الشيخات المؤلم ؟
تذكرت تلك الأمسية التي قضتها فوق هضاب إملشيل، مع الطالب الشاب الذي كان آنذاك يدرس بمدينة فاس،

" عزيزتي كاميليا،
ذات ليلة مقمرة، و قد كنت في خيمة فخمة منصوبة فوق هضاب أيت احديدو، عرفت بالصدفة، أن بداخل الخيمة التي تجري فيها الاحتفالات الرسمية، توجد أم ذلك الشاب ضمن فرقة الشيخات الفلكلورية الموجودة بالموسم. كان وجود ابنها في عين المكان، يدخل الطمأنينة إلى قلبها."

تذكرت حياة و هي جالسة إلى مكتبها، تلك اللحظات المؤثرة التي اعترف فيها الشاب بنشاط أمه، أمام صينية شاي مصحوبة بالفطائر الساخنة.
في ذلك الصباح الباكر و برده القارس، و من أعلى الهضبة المطلة على واد أسيف ملول الرائع، وقفت حياة تودع الطالب الشاب، و أصوات نساء الأطلس الرائعات لا يزال يطن في أذنيها.
أسرعت حياة تنقل إلى الورق هذه الانطباعات التي تتحرك بداخلها و تهديها إلى كاميليا.
" ما أكتبه سيساعدني أنا أيضا على فهم جرأة المرأة القروية و شجاعتها..."
قالت في نفسها، و هي تستأنف الكتابة.

## المنسيات إلى الأبد

رغم الأسبوع الثقافي الفلكلوري، و رغم إذاعة مئات الأغاني الفلكلورية على أمواج الإذاعة الوطنية، و رغم الأمسيات الموسيقية المتعددة التي عرفتها المسارح الوطنية و التي نقلت مباشرة على الهواء، فإن الشيخات -  سواء منهن اللواتي ظللن يقمن بقراهن بأعالي الجبال أو اللواتي التحقن بالمدن الكبرى- كلهن و بدون استثناء، لا يحظين بأية مكانة فنية رفيعة، علما أنهن جميعا، يحملن

في أعماقهن نسغ هويتنا الوطنية ممثلا في الرصيد الشعري الذي يعبر عن العادات و التقاليد و عن المآسي اليومية و حياة الجبال القاسية.
هؤلاء النساء اللواتي ينتمين إلى مناطق نائية مهمشة، و اللواتي يحلو للناس أن يطلقوا عليهن اسم " النساء المتحررات" و هم يبتسمون ابتسامة ماكرة، و اللواتي يستأجرهن الرجال للحظة معينة أو ليلة واحدة من المتعة، و اللواتي يتم نقلهن من منطقة إلى أخرى كالقطيع في العربات أو الحافلات تحت أشعة الشمس الحارقة أو البرد القارس، هؤلاء النساء يعانين، ما إن تنتهي الاحتفالات حتى يقذف بهن إلى الهامش حيث المعاناة من الاحتقار و اللامبالاة. و مع ذلك، عندما تقترب منهن أو تراهن أثناء ممارستهن الحياة اليومية، مثلي و مثلك، يتضح لك أنهن يتوفرن على إرادة قوية لخوض الصراع و المعارك الضارية من أجل صيانة كرامتهن و إيجاد مكان تحت أشعة الشمس. إنهن رمز الشجاعة و التضحية في سبيل أبنائهن و آبائهن.
عندما أسمع الآخرين يتحدثون عن المرأة القروية، تتبادر إلى مخيلتي صورة أولئك النساء المنحنيات على مناجلهن، الغارقات وسط حقول القمح الذهبية، أو في الأودية الخضراء، أو المعلقات في الأشجار المثمرة و هن يرددن و بحماس منقطع النظير، ألحانا شجية. أولئك النساء الأميات اللواتي ينسجن الزرابي و يصنعن أواني الفخار و يفلحن الأرض. كل عقدة صوف تحكي عن حياتهن في القرية. كل قطعة أرض تشهد على كدحهن المتواصل.
إن أولئك الفتيات المتوحشات، البربريات الرشيقات، اللواتي يقضين أيامهن في الهضاب و الجبال وسط الرياح و الثلوج، مجمدات الأيدي و مشققات الأرجل، ينقلن إلينا آلامهن و آمالهن عبر هؤلاء المغنيات الشعبيات. فالأشعار التي يتغنين بها تكشف عن حياتهن اليومية بالقرية. إنهن ينقلن تلك الحياة بحساسية عالية. ذلك أنها حياة أمهاتهن و أخواتهن و صديقاتهن. يحكين بتلقائية و دونما تنميق، عن حبهن وطموحهن حد إبهارنا و التأثير فينا بحكمتهن المذهلة النابعة من صميم واقع الحياة المؤلمة.
"أيتها الشيخات الشابات، إيطو و هنو و إيزا و زهرة، يا صاحبات النظرات المعبرة و السحنات الذابلة رغم ريعان الشباب، أية أحلام تهدهد لياليكن؟ و أي لهيب يحرق طاقتكن؟ أيتها الفتيات اللواتي لا يتوفرن على أية وضعية قانونية، إن التسامح معكن لا يكون إلا من أجل الأعمال الهامة كتدشين مشروع ما أو حدث وطني أو زيارة شخصية متميزة !
يا صاحبات الأجساد المتماوجة بين الألوان المثيرة أثناء المهرجانات، و الابتسامة المرسومة و الحركات الآلية، ما إن تصمت الموسيقى و تنطفئ الأنوار، حتى تعدن من جديد مجرد كتلة من اللحم الطري.

يا فتيات الأسواق الممتدة من بوميا إلى أزيلال و من خنيفرة إلى طاطا، إنكن تحلمن بآفاق جديدة و بجولات في الخارج و بالاعتراف بفنكن، و لكن، هيهات ! الواقع لا يزال مرا، و الغد صادما.
يا فتيات المواسم، يا من تقمن بكل الأعمال و أنتن تغنين للرجال و للبهائم و للطبيعة، إنكن دائما مقصيات من دائرة القرار.إنكن فعالات عندما تقمن بكل الأعمال اليومية الضرورية لاستمرار الحياة، و لكن، عندما يتعلق الأمر بفهم الآليات

الاجتماعية و الاقتصادية التي تحكم تسيير البلاد، يُنظر إليكن –على ما يبدو - كقاصرات لم ينضجن بعد !
أيتها النساء القرويات، يتم الحديث عن تمدرس بناتكن الصغيرات، و عن تنظيم الأسرة و عن المشاركة في التنمية و لكن، لا أحد يكلف نفسه الاتصال بكن وإخباركن بالقرارات التي تتخذ من أجلكن.
تصلكن شذرات من شعارات: " كينة الهلال"، "تنظيم الأسرة"، "الماء الصالح للشرب"، لكن، ناذرا ما يكلف بعض الأشخاص أنفسهم الإنصات لرغباتكم و تحقيق طلباتكم.
أيتها المنسيات الأزليات، قد تظل هذه الخطابات بالنسبة لكن غير مفهومة، و مع ذلك هناك بصيص من النور، لأن حياتكن، صديقاتي العزيزات، معروضة على الملأ و أصواتكن تصدح في الأكواخ كما في القصور، مؤثرة في آلاف النساء و الرجال و الشباب في كل أرجاء البلاد.
أيتها المغربيات، أيها المغاربة، علينا أن نستيقظ !
إن عهد الفلكلور الأعمى قد ولى !"

أسرعت حياة تدون هذا النص مباشرة بعد فورة الكتابة، مخافة أن تغير رأيها فيما بعد.
لقد كانت أثناء أسفارها المتعددة و تنقلاتها عبر الجبال و استماعها المتكرر إلى الأغاني البربرية في الأسواق الأسبوعية، تحس بأن كل ذرة فيها تعكس كينونتها كامرأة. شعاع ما يبهرها. فتنة سحرية غامضة تستولي عليها. تنسى نفسها تماما و هي تتنقل بين الوهاد و الجبال التي يتردد فيها صدى أصوات الشيخات. يزداد يوما بعد يوم، انبهارها بهذه الفضاءات الطبيعية البعيدة عن المدن و زيفها. تجتاحها رغبة قوية في مثل هذه اللحظات، في أن يشاركها زوجها هذا الإحساس بالامتلاء.
فجأة، أعادها الصوت الحاد المنبعث من الراديو للشيخة نجاة إلى الأم الثكلى، إيمي زهرة و إلى واقعها المأساوي. أحست برعشة تسري في جسدها. غادرت الكرسي الذي كانت مستلقية عليه تحت شجرة التين، و أخذت تذرع الشرفة جيئة و ذهابا. ألقت نظرة على قوارب الصيد التي عادت تمر من جديد وراء الحصن البرتغالي. دعكت عينيها المتعبتين و هي تتخبط في أفكارها. تحاول أن تفهم هذا التأجج العاطفي و هذه الطرق المنحرفة التي أدت بكاميليا و إيمي زهرة و السبتاوية و نساء أخريات كثيرات، إلى الاستسلام الأعمى للرجال.

## السبتاوية " المهربة"

قبل سنة من مجيء إيمي زهرة، كانت حياة عائدة من دروسها الليلية حوالي الساعة العاشرة، عندما وجدت السبتاوية جالسة في ساحة المرأب ما بين

سيارة البوزيدي س إيكس السوداء و سيارة ألدو فياط 1500. كانت تبكي في صمت. ترددت في البداية من الاقتراب منها، لكنها سرعان ما قررت معرفة ما بها.

- ماذا جرى لك، السبتاوية ؟ ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟
- آه، يا ابنتي لو تعلمين ! زوجي يخونني، أنا التي أثق به ثقة عمياء.
- و لكن، لالا السبتاوية، لا يجب أن تهولي من الأمر.لا شيء مؤكد.
- كيف ؟ لقد رأيت كل شيء بأم عيني و في غرفة نومي. وجدته مع طفلة بالكاد تبلغ العاشرة من عمرها. لا، لن يمس أبدا، شعرة من رأسي. غدا، سأذهب عند القاضي و سأقلب أمامه بلغتي. سيضع حدا لإهانته كرامتي. كان علي أن أشك فيه عندما كان يقضي الليالي الكثيرة خارج المنزل. يفعل هذا بي أنا، السبتاوية، ابنة عمه ! و تحت سقف بيتي ! يا إلهي، لماذا لم أمت قبل أن أراه يمرغ كرامتي في الوحل؟!

وبدأت تلطم خديها، ثم سقطت فوق الأرض و هي تشهق. حاولت حياة أن تخفف عنها، فدعتها إلى مرافقتها إلى المنزل. أجلستها فوق أريكة، و ذهبت لتحضر لها مشروبا ساخنا.

- سأترك له كل شيء. قالت و هي تفتح عينيها. لا أريد منه سوى ورقة طلاقي. آه، لو كان والدي لا يزال على قيد الحياة لحماني منه. لكنه مات و تركني يتيمة بدون حماية. ظلت حياة تستمع باهتمام إلى السبتاوية تتحدث عن والدها الذي مات قبل سنين في جبال بني يونش. كان يمارس "التجارة" بين سبتة و تطوان. مات، حسب روايتها ، عندما اعترض رجال الدرك ذات مساء طريقه، فحاول الفرار و هو يسوق شاحنته الصغيرة المحملة بالأجهزة الالكترونية بشكل جنوني، عبر المنعرجات إلى أن انحرفت و هوت به إلى البحر.

- أبي المسكين ! لقد مات وحيدا في أعماق "بونتا سيريس"، تاركا وراءه أحد عشر طفلا بدون معين. هو من علمني مهنة التهريب. كان صديقا لكل رجال الجمارك قبل مجيء الرئيس الجديد."

صمتت السبتاوية فجأة، و أغمضت عينيها و لم تعد تتحرك. وضعت حياة غطاء فوقها و أغلقت عليها الباب، و اتجهت صوب المطبخ حيث أخذت قلما و مذكرة و بدأت تكتب:

"كاميليا يا ابني، ترى ماذا تفعلين الآن ؟ لا أتوقف عن التفكير فيك. تذكرني السبتاوية بعشرات النساء الواقفات أمام حدود سبتة، و الملفوفات بالبضائع المهربة. أولئك النساء "المكورات" اللواتي يقتحمن المخاطر من أجلهن و أجل أطفالهن الكثيرين و أزواجهن المريضين و المعاقين."

كانت السبتاوية في الخامسة و الثلاثين عندما تزوجت ابن عمها الذي تجاوز بالكاد، العشرين من عمره. لم يكن في حاجة إلى العمل في ظل امرأة نشيطة مثلها. لذا، كان يتلذذ بالعيش على حسابها، مغذيا في نفس الوقت، ميله الشاذ نحو شبان الحي، دون النجاح في إخفائه تماما. ذلك أن العائلة فرضت على المطلقة الشابة التي كانت لا تزال تحتفظ بجمالها و نشاطها، الزواج من ابن عمها قدور لإسكات ألسنة السوء. فهذا الزواج، يجعله يدحض ما يقال عن شذوذه المعروف من طرف الجميع.

كانت السبتاوية تعيل أبناءها الأربعة بالإضافة إلى زوجها، عن طريق ممارسة " التجارة" ما بين سبتة و تطوان. تقتني من سبتة الأواني المنزلية والأقمشة و الأغطية الناعمة. كما تشتري على وجه الخصوص، الحلويات و الشوكولاته المصنوعة بإسبانيا، و التي تروّج بالمغرب عن طريق شبكة "البراكدية" المحكمة التنظيم. يحدث أحيانا أن تتخلى السبتاوية لرجال الجمارك عن بعض البضائع ليتغاضوا عن الباقي، مثلها في ذلك مثل العديد من سكان المنطقة الذين يعيشون بواسطة هذا التهريب الذي يجد فيه كل واحد ضالته. في الصيف مثلا، يتوافد أصحاب السيارات بشكل غريب، من جميع أنحاء المغرب، لشراء ما يحتاجونه من سبتة أو من سوق الفنيدق الذي يقع على بعد بضعة كيلومترات فقط من باب سبتة.
ترتفع الأسعار خلال فصل الصيف و أثناء العطل الفصلية، لكن كلا من البائعين و المشترين يعتبرون أنفسهم رابحين ما داموا لا يؤدون أية ضريبة على هذه البضائع.
تضاعف السبتاوية نشاطها خلال هذه الفترات المزدهرة من السنة. فهي تعرف كل الطرق الجانبية البعيدة عن الطريق الرئيسي. تجتاز المنحدرات الحادة و الوديان حتى تصل إلى المضيق حيث تركب الحافلة العمومية و تضرب موعدا للحمالين الشباب أصحاب البغال الذين تتعامل معهم منذ سنوات عديدة. تمنحهم مستحقاتهم و تخزن البضائع عند إحدى قريباتها في انتظار اللحظة المناسبة لترويجها بأعلى الأسعار في سوق النوادر بتطوان أو ب"كازا باراطا" بطنجة. أما زوجها، فيقضي وقته جالسا بكل اطمئنان في مقهى ساحة الفدان، يدخن السبسي.

" عزيزتي كاميليا، منذ أيام، ذهبت لتقصي أخبار إطلاق سراحك فأردت أن أواصل طريقي حتى ساحة الفدان. و كم كانت صدمتي قوية أمام المشهد الغريب الذي طالعني. لم أجد أثرا للفدان الموشوم في ذاكرتي. الفدان الذي كان ذات زمن، يعبق برائحة تاريخ الريف، محاطا بالأشجار الباسقة ذات الظلال المتراقصة فوق الفسيفساء الأندلسية. كانت هذه الساحة تحيي كل صباح، السكان الذين يقفون بكل قدسية أمام قصر الخليفة، قبل أن ينطلقوا لقضاء مشاغلهم الخاصة. الفدان ! ملتقى كل من المدينة القديمة و الجديدة. المكان الذي يحن إليه قدماء المحاربين. في ذلك الوقت، كان سكان تطوان يعتبرونه مكان لقائهم اليومي. هو الذي تضرب فيه المواعيد. هو الممر الضروري لدخول المدينة القديمة أو الخروج منها. هو الذي يجسد ذاكرة الهوية، و يجمع بين الحداثة و التقاليد الأصيلة. فيه يلتقي الزوار القادمون من مختلف مناطق البلاد. هو المحطة الممتعة لكل القرويين القادمين من " لينجرا" و " اجبالة" و " اغمارة". منه تعبق كل روائح البلاد، و فيه تتعايش كل أنماط الحياة. أرضه شاهدة على الاستعراضات الضخمة و الاحتفالات الرائعة و النقاشات الصاخبة.
لم تعد ساحة الفدان كما كانت من قبل. لن يعرفها الأطفال الصغار على حقيقتها أبدا. لقد انتزعت صفحتها من كتاب تاريخ تطوان العظيم و تعرضت ذاكرتها – و بغباوة شديدة - للتلف من طرف أولئك المسؤولين غير المبالين بالحفاظ على التراث الوطني."

تجتازها السبتاوية باستمرار ساحة الفدان هذه على عجل. تأتيها أصوات صبيان المقاهي و هم يذكرون طلبات الزبائن مصفقين فوق رؤوس الزبائن.
لمحت من بعيد، زوجها الشاب يجلس إلى طاولة بمقهى الأندلس المحاطة بالنباتات. كان منهمكا في الحديث مع متقاعدي المحلة العاطلين مثله. أحست بالرضا و هي تراه سعيدا. واصلت طريقها تحت أقواس المدينة القديمة، حاثة الخطى لتبيع آخر بضائعها للزبائن القدامى أو لتجار العرسة، و لتعود إلى بيتها بسرعة لإعداد طاجين لذيذ من السمك لزوجها العزيز.
في اليوم التالي، استأنفت السبتاوية حديثها مع حياة أثناء تناول الفطور قائلة:

- و أنا التي كنت دائمة الإخلاص لقدور ! لقد كان العديد من رجال الجمارك الأقوياء أصحاب الشوارب الكثة يرغبون في الزواج بي ! تزوجي ابن عمك و هذا ما ستجنينه !

في أواخر النهار، عادت السبتاوية من جديد ، تعدد و بغضب، كل التضحيات التي قامت بها حبا في زوجها الشاب. تذكرت حياة النوادر التي كانت تُحكى عن السبتاوية من طرف بعض المتطوعين في المسيرة الخضراء. كيف كانت دائمة العناية بزوجها، تحمل غطاءه في النهار و تطبخ خبزه في المساء فوق الحجارة الملتهبة على طريقة البدو الرحل. و كيف سهرت ليلة كاملة دون أن تذوق طعم النوم، عندما أصابته ضربة شمس قوية.

- و من الذي نال الجزاء بعد عودتنا ؟ من ؟ صاحت فجأة. هو وحده طبعا ! هو وحده من دعي إلى كل المآدب التي أقيمت بالحي من طرف الباشا. آه، يا حياة. ما كان زوجي الطيب و أبو أولادي، أن يفعل بي مثل هذه الأفعال الدنيئة !

بعد الظهيرة، استيقظت حياة و هي ترتعد من شدة الحمى. كان رأسها مليئا بالكوابيس. سحبت نفسها بصعوبة حتى مقهى ريكس لتناول فنجان شكولاتة ساخن. كان الشكيري كما هي عادته دائما، يجلس إلى طاولة في أقصى ركن من المقهى، محمر العينين، منفوش الشعر و أمامه ركام من الأوراق مكتوب بالعربية. حيا حياة بحركة من رأسه. كانا لفترة من الزمن، زملاء بنفس الإعدادية التي تعمل بها. في الليلة السابقة، وجدته في حالة سكر تام، مسندا ظهره إلى عجلة سيارة السيد الزياني. الشكيري يكتب و يتعاطى شرب الخمر بكثرة. حياة معجبة بقوة إرادته و بمواظبته و إصراره على النجاح بعد سنوات البؤس الطويلة التي عاشها.
" يمكنك أنت أيضا، الخروج من هذا الواقع يا كاميليا. قالت في نفسها و هي تتأمل فنجانها الفارغ. يجب أن تعرف قصتك، فالمجتمع لا يعترف إلا بالذين يجرؤون على الكلام."
حوالي الساعة التاسعة، عثرت حياة وهي تتجه صوب صيدلية الثانوية لشراء الدواء، على كتلة مكومة وراء باب المرأب. و كم كانت مفاجأتها كبيرة، عندما اقتربت منها فوجدت اكرملة صبي الفرن، مكورا في جلبابه. منذ طفولته المبكرة و هو بدون عائلة. لم يعرف له أقرباء غير تجار الخضر ب "فندق الشجرة" حيث كان ينام بين البهائم أيام السوق الأسبوعي. تتناقل الألسن أنه وجد ذات صباح باكر، و هو في الخامسة من عمره، يئن بجانب أحد الأعمدة بزنقة بنيدر. كان أزرق اللون، مغتصبا و غارقا في دمه. حملته حسناوية بائعة اللبن و الزبدة الطرية، و وضعته فوق بغلتها ما بين الجرار. ظلت زمنا طويلا تعالجه في بيتها بأعشاب

وحدها من يعرف أسرارها. غير أن ابنها الذي عاد من بلجيكا في شهر غشت راكبا سيارة المرسيديس، منع أمه من بيع اللبن و طرد الطفل من البيت، فعاد اكريملة إلى الشارع من جديد.
كل التجار يعرفون هذا الطفل. يطلبون منه دائما، تقديم خدمات لهم مقابل إناء من البيصارة. ظل يحمل السلال و يجر العربات أيام السوق إلى أن دعاه صاحب " مخبزة تياترو" للعمل في الفرن و منحه مكانا ينام فيه. مندئذ، صار طيلة النهار، يحمل الصفائح المليئة بحلويات الملوزة و اغريبة. يجازيه سكان الحي بإعطائه ربع رغيف من الخبز أو بعضا من حلوى اللوز.غالبا ما يلجأون إليه مع اقتراب الأعياد، لمساعدتهم على تنظيف منازلهم أو تحضير الجير الملون بالأزرق لطلائها. ينادونه من كل ناحية:

- صباح الخير اكريملة، كوخو...
- اكريملة، ما الفيلم الذي يعرض حاليا بالكابيتول؟
- اسمع يا اكريملة، عندي لك خطيبة. ما رأيك في خدوج الحمقاء؟

و اكريملة المسكين يوزع ابتساماته البلهاء يمينا و يسارا، و هو يسرع بخطواته العرجاء.

اكريملة، يا ابن الشارع و رفيق البهائم
اكريملة، يا ابن الرذيلة، لا تعرف قول: لا
اكريملة، يا ولدي، اليوم فقدت عقلك
تنفجر ضاحكا عندما يقولون لك : أنت بدون أب
تحيي الذين يذكرونك بأمك راشيل اليهودية،
مومس شارع بنيدر
التذكار الوحيد الذي بقي لك منها:
علم هولندي و شمعدان بسبعة أعمدة
الهدية التي قدمها لها أحد المهربين
الذي ذهبت معه ذات يوم.
عندما يعطيك السياح بعض الحلوى،
تحتفظ دائما ببعضها للالا غنو
التي تشاركك نفس العالم الذي تعيش فيه
لأن الجنون يوحدكما.

أيقظت حياة كريملة و أدخلته المطبخ. قدمت له فنجان حليب بالقهوة و هي تنبهه إلى عدم إيقاظ السبتاوية و إيمي زهرة. ثم خرجت لقضاء بقية أغراضها. تصفحت جريدة طنجة و توقفت بالخصوص عند الصفحة الرياضية. فهي تحب قراءة تعليقات زميلها في الدراسة باختي.عندما عادت إلى بيتها بعد ساعة من الزمن، لم تجد لا اكريملة و لا السبتاوية. فاجأتها النظافة التامة للمنزل. كانت أرضية المطبخ تلمع لمعانا شديدا. فالسبتاوية مهووسة بالنظافة، لا تتحمل الفوضى و الغبار، خدومة، تنتقل من بيت لآخر لتقديم المساعدة لجيرانها أثناء حفلات الولادة أو الختان أو غيرها من المناسبات. غالبا ما تدخل يدها في جيب سروالها و توزع على أطفال الحي الحلوى أو ما يسمى ب" سوباسيبس".

"يا للسبتاوية المسكينة ! قالت حياة في نفسها. كم هي كريمة و مجدة في عملها ! و كم هي مجروحة في كرامتها كامرأة ! "

" صغيرتي كاميليا، لقد مرت شهور عديدة، و مع ذلك لا زلت أحتفظ منذ ذلك التاريخ، بنسخة من جريدة "الشمال" الأسبوعية التي أشارت إلى الحادثة المأساوية التي وقعت للمهربات الفارات في اتجاه منعرجات داليا في عز فصل الشتاء. الوصف لا يدع مجالا للشك. لقد كانت السبتاوية من بين النساء المصابات. منذ قدومها عندي، و هي تحتمي بصمت مقلق ! "

# طفل الخطيئة

تحاول مون، و هي تشتغل مع كل هؤلاء النساء المتوافدات على الأستوديو الأصفر، أن لا تخرج عن التصور الذي وضعته أمها لهذا المشروع الوثائقي. فهي تعرف جيدا أن أمها لا تتعاطى لهذا المشروع إلا من أجل مد الجسور بين النساء المضطهدات لإثارة انتباه الرأي العام إلى ما يعانينه من تهميش، باذلة ما في وسعها لإيصال شهاداتهن إلى الجمهور العريض. إضافة إلى أن مون معجبة بأمها، المرأة القوية الحازمة، و تؤيدها في مسعاها هذا.
انسحبت مون و ابتسامة خفية مرسومة على شفتيها، تاركة إيمي زهرة و حياة تواصلان نقاشهما، و السبتاوية تؤدي صلاتها جالسة. حياة من جهتها، تعرف نوايا ابنتها البكر ما في ذلك شك، لكنها تذهب بعيدا في توريطها في هذه القضايا الاجتماعية. فهي في حاجة إلى كفاءتها و بالخصوص إلى حسها النقدي. تريد استغلال قدراتها لجعلها تدرك الحياة التي تعيشها النساء المهمشات على أرض الواقع. من أكثر منها، يستطيع أن يغوص في أغوار كل هؤلاء النساء، هي التي خاضت منذ سنوات طويلة هذه المعركة؟ تدور بينها و بين ابنتها نقاشات حادة حول مواضيع مختلفة، لكنهما تتفقان عند الأزمات.
هذا الصباح، كان النقاش بينهما عاصفا كالعادة.

- و لكني أنا من يخرج الفلم يا أمي، و ما على إيمي زهرة إلا أن تتحدث عما عاشته بكل بساطة.
- أنا متفقة معك يا ابنتي و لكن، لا تنسي أن المحرمات لا يتم اختراقها بسهولة.
- لنتفق يا ماما. الكل يدعي أن الشيخات نساء مستخفات بالعادات و التقاليد، و لكن الخطأ خطأ من؟ أريد أن أشير إلى الذين يستغلون هذه الوضعية ، ألا و هم الرجال طبعا...
- و النساء أيضا. لا تنسي اللواتي يتحملن مسؤولية أسرهن و ينفقن عليها بفضل هذا الفن، و اللواتي يرجع لهن الفضل في استمرار الزجل عبر التاريخ ليصل إلينا.

- ماما ، أعتقد أن هذا الجانب من المسألة لا يهمني و لا يهمك أنت أيضا !

تدخلت فجأة، لينا صديقة حياة قائلة بلهجة تنم عن اقتناعها بما تقوله مون:

- مون محقة يا حياة. يجب توجيه الصفعات لأولئك الأوغاد الذين لا يفكرون إلا في فتح سراويلهم و الذين ينسحبون أمام نتائج أفعالهم المشينة. لقد مرر جيلنا في صمت، كل آلامنا و إحباطاتنا و إهاناتنا و كل أنواع الاغتصاب الجنسي و الفكري الذي عاشته المرأة. اتركي ابنتك تتحدث عن ذلك بطريقتها الخاصة. لقد عانيت ما فيه الكفاية لتحقق حلمها في أن تتمكن من فضح كل مظاهر الظلم.
- أنا فخورة بعملها يا لينا، و لكني أريدها أن تعي المخاطر التي تقف في وجه إنتاجها.
- لا يا أمي، أعتقد أنك لم تفهمي ما أنا مقدمة عليه. ما أبحث عنه من كل أعماقي، هو الطريق الذي يؤدي إلى الحوار. عملي هذا، أكبر من مجرد تحقيق للمطالبة بشيء ما. إنه عمل يدخل في إطار المواطنة يصلح لنا كما لغيرنا من البلدان. إنه يتعلق بالخصوص باحترام رغبات الإنسان ومشاعره.

صفقت ليندا مؤيدة رأي مون، و هي تزف إليهما خبر قرارها بالانفصال عن زوجها الذي يهين كرامتها منذ سنوات طويلة:

- هل تعرفين يا حياة بأن حركتنا النسائية في السبعينيات التي كانت تدعو إلى مساندة الرجل و قبوله لذاته لا لشيء آخر، و وضع الثقة في رغباتنا و طموحاتنا الخاصة، هي من قادنا إلى الهلاك ؟ لقد انخدعنا آنذاك، بالأفكار الجوفاء و رفضنا رؤية واقعنا الخاص. ذلك أن عقلية رجالنا كانت رهينة المناخ التقليدي الذي تربوا فيه. أما الرجال حاليا، فعلى العكس من ذلك تماما. يريدون امرأة شبيهة ب"لوليتا" ذات الأرداف الضيقة كأرداف الصبيان، من أجل المتعة، و زوجة في البيت، صالحة للقيام بكل شيء. و حبذا لو كانت هذه الزوجة بكماء و مستعدة لصرف كل نقودها للعناية ببيتها و أطفالها.
- بالتأكيد، أضافت مون. لكن، ليس هذا هو المشكل. ما يقلقني بالخصوص، هو النفاق المؤسساتي الذي يهيمن على السلوكات و بالخصوص على ما يسمى بالأفكار التقدمية، علما أن وراء الواجهة المحترمة لبعض صناع القرار تقبع شيخة سمينة تفوح منها رائحة أنثى قاع المدينة القديمة. لقد أصبح الأمر عاديا بالنسبة لهم ، لدرجة إثارة الضحك في جلساتهم الخاصة. و على كل، فأنا مدينة لكما بسد الثغرات التي تنقص مخطط التصوير الذي وضعته.
- ابنتك عظيمة يا حياة ! صاحت لينا. بتعاونكما هذا، ستجعلان المعنيين يموتون خجلا. متى ستبدأ انطلاقة التصوير؟
- إني في انتظار مدير التنفيذ، قالت مون و هي تضع قرصا مدمجا في آلة التسجيل.

عبر النافذة، لمحت حياة حشدا هائلا يتزاحم أمام باب المسجد المقابل للمنزل.

- هؤلاء هم رجالنا أصحاب الضمائر المستريحة، الذين يحددون رواتبنا و رغباتنا، قالت لينا و هي تحدق في الجموع الهائلة. هذه عينة من الرجال الذين يعتقدون أنهم وحدهم القادرون على الحفاظ على القيم الأخلاقية. انظرن إليهم ! إنهم يحتلون أفضل الأمكنة حتى في فضاءات العبادة ! أب أطفالي يجلس بينهم، و لا يعرف أن ابنه يجتاز اليوم، امتحان الباكلوريا !

كانت غيثة تتابع النقاش في صمت دون أن تنبس بكلمة. لكن نظراتها توحي بالقلق. تحاول حياة دائما، مراعاة إحساسها المرهف. فهي تعرف أنها متأثرة بمشاكل قريبتها كاميليا، و ترفض عالم الفساد و الاستغلال. فجأة، صاحت في أمها:

- ماما، ماما، هل القوانين ما وجدت إلا لصالح مثل هؤلاء الأوغاد و المجرمين؟ لماذا لا نحرق هذه الحقول، و نقتلع نبتة الريف هذه ؟ لماذا لا نعلم الشباب زراعة أشياء أخرى ؟

استمرت في طرح أسئلة أخرى، طالبة من أمها الإجابة عليها.

- لا أعرف كل شيء يا ابنتي. و لن أعرف ذلك أبدا. أنا فقط، أتخيل الأشياء. ثم أحاول أن أفهم.

نعم، ستتذكر حياة دائما، ذلك اليوم المشؤوم الذي تزوجت فيه كاميليا ابن خالتها بأصيلة. كانت مون قد حضرت حفل الزفاف و فهمت في الحال رهانات هذه الليلة. ليلة المظاهر. أجواء غريبة كانت تخيم على الحفل. كان العاشق المنحوس حاضرا. كان مخمورا و مخدرا. و كانت المعركة على أهبة الاندلاع في خضم حمى الأجساد المأخوذة بالرقص الجنوني. حاولت حياة من قبل، منع هذا الزواج بكل الوسائل، لكن أحدا لم يستمع لنصائحها."و ما شأنها بنا ؟ يتصايحون جميعا. يتم الزواج أولا ثم يأتي الحب بعد ذلك."

يا للمنافقين البؤساء !

أحست حياة بالتمزق و هي تستعرض شريط حياة جدتها لالا يما التي تحبها كثيرا.

" – و لكن، انظروا حولكم. افتحوا عيونكم. كانت حياة تقول لعائلتها الطنجاوية في كل مناسبة. حاولوا و لو مرة واحدة في حياتكم، أن تتفهموا العذاب الأليم الذي عاشته كاميليا بسبب هذا الحب. تذكروا نموذج عزيزتنا لالا يما. لقد فهمت هي كل شيء منذ الليلة الأولى، و هي في الثانية عشرة من العمر. منذ تلك الليلة، لن يكون لأي رجل آخر ما عدا زوجها، أي مكان في حياتها. هل قرأتم على وجهها، و هي منزوية اليوم في ركنها الصغير، بعدما بلغت التسعين من عمرها، الأسرار السجينة في نظراتها المغلفة بالضباب ؟ منذ صغرها، و هي ترزح تحت وطأة الطاعة و الخضوع للرجل. و اليوم، تؤاخذون على كاميليا حبها لذلك الوغد، و على خضوعها للرجل الذي غمرها بالوعود في انتظار وثيقة الزواج الشرعية ؟ لا أفهمكم ! هل تتخيلون أن جدتنا كانت تجرؤ على التبليغ عن رجلها لأي سبب من الأسباب ؟ ليس من حقكم أن تصابوا بفقدان الذاكرة إلى هذا الحد ! منذ الموت المبكر لجدنا، و جدتنا لا تكف عن الأنين. رغم تحررها من الرجل، ظلت في حاجة ماسة إليه. لقد مد جسدها المثخن بالمعاناة قنوات الألم إلى كل أعضائها، فغزتها آلام المفاصل و الظهر و الأوراك و الإمساك المزمن و غيرها من الآلام.

كانت دائما تمجد ذكراه و ستظل إلى آخر يوم في حياتها، تنقل إلينا ما ورثته عنه من شفرات و قوانين تلقنها لنا بكل فخر و اعتزاز. أما الثمن الذي أدته عزيزتنا يمّا لالا "آلاما و أحزانا مكتومة" ، فيحلو لكم أن تضعوه جانبا فوق رف الحشمة و الحياء و واجب الزوجة الذي أدته على أحسن وجه، مع أنكم جميعا تعلمون مدى احترامها لزوجها و سيدها الذي كان محور حياتها. لقد ظلت طيلة حياتها، تراكم الإحباطات و الرغبات المتأججة في أعماقها. كما لو أن جدنا العزيز، كان يستحق كل هذه التضحيات ! أما كاميليا، فقد أدت بها تضحيتها و صمتها إلى السجن. و

أنتم تحكمون عليها بقسوة دون محاولة فهم آلامها. لقد جعلتم منها وصمة عار العائلة حتى تزيلوا عن أنفسكم أية مسؤولية. و حياة ترفض لعبة الكيل بمكيالين هذه.

في السجن، تمر الأيام شهرا بعد شهر و سنة بعد أخرى. بدأت حفيدة يما لالا تخطط لمشاريع صغيرة تقوم بها عندما تسترجع حريتها و تذهب للعيش مع الخالة على شاطئ البحر، بعيدا عن المدينة و عن نظرات سكان الحي. فكاميليا تعرف أن حياة كانت ترغب في استقدامها منذ زمن طويل، للعيش معها في الرباط، غير أنها تغذي حلما آخر ألا و هو مغادرة المغرب ذات يوم. تريد أن تجعل بينها و بين عائلتها حدودا و أسوارا حتى يتم نسيانها.
في طنجة، كانت إيمي زهرة تحاول بصعوبة التآلف مع الحياة داخل هذه المدينة، بعيدا عن الفضاء الذي ترعرعت فيه. فالحنين إلى ذلك الفضاء يلازمها باستمرار. أحست حياة بالقلق على صديقتها، لكنها طمأنتها قائلة:

- إنها حالة طبيعية يا حياة، وسيأتي الوقت الذي أتغلب فيه عليها. ما أفتقد إليه بالخصوص ، هو ألوان جبالنا و الأنغام التي تتردد فيها.

غير أن حزن إيمي زهرة المتواصل يوقف أحيانا، تدفق الكتابة عند حياة. لذا، قررت ذات صباح زيارة بعض القرى موكلة لإيمي زهرة مهمة العناية ببيتها أثناء غيابها.
استعادت حياة و هي بعيدة عن بيتها، حماسها شيئا فشيئا. راحت تزور الدواوير الساحلية و الدشور التي تطوقها جبال الريف. تحاور الناس و تنصت إليهم و تسجل مطالبهم. تغامر بالذهاب إلى أحياء القصدير في ضواحي المدن حيث ظروف الحياة صعبة للغاية و حيث اكتشفت واقع "لفنادق" المحرومة من أبسط شروط الحياة الضرورية. أصابها الرعب مما لاحظته من عدم تحمل المنتخبين لمسؤولياتهم و من ثقل البيروقراطية و القمع الذي يمارسه بعض موظفي الجماعات المحلية على المواطنين. معاينتها لهذا الواقع المر على أرض الواقع هو الذي يجعلها تعزف عن حضور المؤتمرات و المناظرات الرسمية.
كانت تتوغل في المناطق النائية في بلادها لمعرفة واقع السكان و مطالبهم و نقلها إلى أصحاب القرار. لقد صار الحفاظ على كرامة هؤلاء الناس شغلها الشاغل. إنها مهمة صعبة و لكن، لا يهم، ما دامت حياة تؤمن بها.
كانت إيمي زهرة تتابع من بعيد جولات صديقتها دون طرح التساؤلات و تنتظر بكل اطمئنان وصول إيتري صديقة حياة التي ستلتحق بفريق التصوير.أسعد هذا الخبر حياة التي تعتبر إيتري بمثابة أخت لها، غير أن عودتها هذه بعد غياب سنوات طويلة يحيرها. تتذكرها و هي تشجع مون خلال سنتها الأخيرة بمدرسة الفنون الجميلة و ترسم معها ألف مشروع للمستقبل...
لم تستطع إيتري التي وصلت البارحة في وقت متأخر، أن تنام بسبب الضجيج الآتي من المطبخ و الذي يحدثه غسل الأواني. ظلت تتقلب في فراشها بحثا عن النوم و لكن بدون جدوى.
تسعى إيتري من خلال هذا الشريط الوثائقي إلى استرجاع صوت أمها عبر الأغاني التي كانت تسكن طفولتها المبكرة. فهي في بحث دائم عن ماضيها و عن أمها. ترى نفس الصور و تسمع نفس الأصوات في كوابيسها الليلية منذ افتراقها مع مايسان الذي أصابها خبر موته المفاجئ بالصحراء بالانهيار.

لقد دخل ميسان حياتها رغم أنفها، لكنه غمرها بحبه. فكان تعلقها به موسوما بالاحترام المتبادل و التواطؤ الكبير بينهما. أحست بالاضطراب. فهذه الليلة التي تقضيها في المدينة السحرية ما بين الأحلام و الكوابيس، تؤجج أحزانها. راحت تبكي بحرقة، غياب الحبيب.
مع أواخر منتصف النهار، و قبل أن تغادر غرفتها، أفرغت حقيبة سفرها فإذا بها تفاجأ بوجود رسالة بين ثنايا ملابسها. فتحتها بسرعة. إنها من مايسان ! لم تصدق عينيها." إيتري حبيبتي، لن أنساك أبدا. عليك بفك الرموز..." تلك كانت كلمات الرسالة المكتوبة على عجل.
دخلت إيتري الصالون و قد نوت مصارحة صديقتها حياة. لم تعد قادرة على التحمل. إنها في حاجة إلى من تحدثه عن مايسان و عن حياتها في الصحراء. وجدت حياة منهمكة في تصميم أحد الملصقات،ففاجأتها بقولها:

- حياة، أنا اليوم متأكدة من أن مايسان يحبني كثيرا. هو من خطط لاختفائه المفاجئ. لدي رغبة كبيرة في أن أحدثك عنه.
- طبعا صديقتي. افعلي إذا كان ذلك يريحك.
- تعرفينن يا صديقتي، أن حياتي كانت مليئة بالمآسي قبل التقائي بمايسان. كنت أعاني من الظلم الفظيع و في نفس الوقت كنت عاجزة عن الوقوف في وجه عمي الذي كنت أعيش في بيته بعد موت أبي و اختفاء أمي الغريب. كنت أقول في نفسي بأن الهروب خير من البقاء مع تلك الإهانات الدائمة. كان لدي إحساس بالدسائس التي يحيكها لي عمي. فقد كان يريد تزويجي من ابنه البكر الذي لم يكن يتوقف عن مضايقتي كل ليلة في فراشي و ينعتني بالناشز. ذات ليلة، سمعته يقول له بخصوصي:
- تصرف كرجل و ضع حدا لتصرفها هذا. اغتصبها إذا اقتضى الأمر ذلك. فبمجرد ما تفقد بكارتها لن تستطيع الإفلات منا. آنذاك تتزوجها، و تعلن ليلة الدخلة أنها ليست عذراء. و طبعا، ستجد نفسها مضطرة لتعويض خسارتك، إلى التنازل لك عن كل ثروتها.
- و إذا صاحت، ماذا أفعل؟
- كممها أيها الأبله !

منذ تلك اللحظة، اتخذت قرارا لا رجعة فيه. أن أهرب بأية وسيلة. كان بهو بيتنا مجاورا لمسجد الحي، و كنت غالبا ما أسمع المصلين يتحدثون عن يوم التجمع الكبير من أجل المسيرة الخضراء. و ذات صباح، كتبت على الجدار هذه الكلمات:
" اسمحوا لي، لم أعد قادرة على التحمل. لقد اتهمتموني بالتمرد. فليكن ذلك. قد تأتيكم أخباري ذات يوم..."
خرجت باكرا لأسجل اسمي في لائحة المتطوعين للمسيرة، لتغطية الحدث لفائدة إحدى الجرائد الوطنية. بعد انتهاء المسيرة لم أرد العودة إلى بيت عمي. كنت أود الحصول على عمل يتيح لي فرصة البحث عن أمي. فاقترحت علي إحدى المتطوعات من السمارة التي حكيت لها مشاكلي، الإقامة معها عند أهلها إلى أن أجد حلا، فقبلت. لكننا في طريق العودة، وقعنا، و نحن على بعد مسافة يومين من مدينة العيون، في كمين وضعه قطاع الطرق من الجهة الأخرى لكثبان الرمال. أخذوا بالقوة، نساء كثيرات إلى مخيمات العار. و هناك عشنا محنا كثيرة. كنا نعامل كالحيوانات. نكدس في الخيام تحت رحمة الزوابع الرملية و برد الليالي القارس. و مثل الكثيرات منا، رضخت للأمر الواقع. كانوا يمطروننا طيلة النهار

بخطاباتهم. ينتزعون منا مجوهراتنا و نقودنا "لصالح التضامن الجماعي" كما يقول رؤساء العصابات. كنا مضطرات للتناوب على تلبية رغبات الرجال الذين يسيرون هذه المخيمات عن طريق الزواج العرفي لا الزواج الشرعي. كانوا يحاولون إقناعنا بصحة هذه العقود شرعا، و يعدوننا بإطلاق سراحنا في أقرب وقت. و ذات ليلة، قادوني إلى الخيمة التي يوجد بها الرجل الذي اختاروه لي.استسلمت للأمر، إذ لا يوجد خيار آخر أمامي.غير أن الرجل المعني كان لطيفا معي و اقترح علي اقتراحا أسعدني غاية السعادة. لم يكن ينوي أن يفرض علي مقاسمته الفراش، و بالمقابل طلب مني أن أرافقه في كل تنقلاته لأخذ الصور، و أن أعلم الأطفال الصغار بالمخيم حفظ القرآن الكريم. باشرت العمل ابتداء من صباح الغد. فقد لاح لي شعاع أمل في الحصول على حريتي عن طريقه. كيف ذلك؟ لم أكن أعرف ! حاولت القيام بمهمتي على أحسن ما يرام. فيما بعد، أصبح من حقي الحصول على خيمة وحدي، قمت بترتيبها بطريقتي و حسب ذوقي.

كان مايسان في الأربعين من عمره. طويل القامة. تنير وجهه ابتسامة فاتنة. شعره الرمادي يغطي جبهته باستمرار.غالبا ما يلبس عباءة صحراوية فوق سروال خاص بركوب الخيل. في المساء، ينعزل في خيمته بعيدا عن المخيم، ليقرأ أو يرسم. لم يتعجل في طلبه مني أي شيء آخر ما عدا حضوري إلى جانبه. كان كتوما و يعرف كيف يتعامل مع النساء. كان يغرقني بالهدايا. مرت شهور كثيرة على هذا الحال. كان غالبا ما يغيب، وفي كل مرة  يعود فيها يكون سعيدا بلقائي. كنت أقدر فيه كثيرا هذا السلوك الجميل.

ذات يوم، زارتنا صحفية كندية كانت تريد اللقاء بسكان المخيمات، فطلب مني ملازمتها لتوثيق هذا اللقاء. طيلة فترة إجراء الحوار، و ما بين التقاط صورة و أخرى، كانت تستولي علي رغبة قوية في أن أسلم رسالة لهذه المرأة التي تبدو لي جد مهتمة بوضعية النساء في الصحراء. و في الوقت الذي كانت تتأهب فيه لمغادرتنا، استطعت أن أدس في قبضة يدها ورقة بها عنوان خالتي بتيزنيت. قبل أن تصعد إلى سيارة الجيب التي يحرسها جنديان، استدارت نحوي و ابتسمت إلي. لمح مايسان تلك الابتسامة فتجهم وجهه. أحسست به متوترا جدا، و بدون سبب صب وابل غضبه على مساعده. لم أشعر إلا و أنا أسأله بجرأة كبيرة: "لماذا تعنفه؟ ما الذي فعله؟"

نظر إلي محدقا في عيني دون أن ينبس بأية كلمة. ثم صعد سيارة الجيب و غاب وراء كثبان الرمال. أحسست بالخوف علي و على تلك الصحفية.

و في وقت متأخر من تلك الليلة نفسها، ظهر من جديد قرب نار المخيم و عضلات وجهه متوترة. اقترب مني في هدوء، و بلهجة جادة عبر لي عن رغبته في أن يجعل مني زوجته الشرعية. اندهشت من طلبه هذا. كنت في حاجة إلى التروي و التفكير بكل وضوح. و بدون شعور، وجدتني أفكر في سليم صديقي و كاتم أسراري الذي التقيت به أثناء التجمع الكبير. خفت من الآتي و أنا أفكر في الجندي الذي عاقبه بدون مبرر. نهضت دون أن أنطق بأية كلمة، و اتجهت نحو خيمتي. قررت أن أكتب له جوابا.

" صديقي مايسان، لم يسبق لي أن خفت من قول الحقيقة في وجه أحد. و لكني لا أستطع التحكم في انفعالاتي عندما يتعلق الأمر بالصراع العاطفي. ما جعلني أتجرأ على إبداء تلك الملاحظة هو كونك توبخ معاونيك و استفزازك للآخرين. فأنت غالبا ما لا تأخذ بعين الاعتبار حساسيات الناس و هشاشتهم. لقد

تركتك فجأة، لأشاركك ضيقك و بالخصوص ذاك الصراع الذي أشعر أنه ينخرك من الداخل. إني أعبر لك، و بطريقتي الخاصة، عن أفكاري باسم الصداقة التي تربطنا و التي أتمنى أن تكون صادقة (و هي كذلك من ناحيتي). أعرف أنك شخص استثنائي وسط هؤلاء المخادعين. إنك تمتلك الكثير من الحب و العطاء، لكنك مع الأسف أرعن في سلوكك. تصرفاتك العنيفة تخفي طبيعتك الحساسة جدا وعواطفك الجياشة. أنت إنسان قلق يفيض كرما. إن لحظات السعادة التي قضيتها بجانبك هي عزائي الوحيد في هذا المنفى الإجباري. أحتفظ دائما في ذاكرتي يوم وصولي إلى المخيم، بصورة رجل منحن على امرأة عجوز تلتهب من شدة الحمى. كانت حركاتك رقيقة و صوتك حنونا. لقد ترك هذا الجانب الإنساني فيك تأثيرا عميقا في نفسي. إن هذا الجانب الذي تخفيه دائما، هو الذي جعلك تسمو في نظري. يا إلهي، كيف يمكنك أن تكون منفرا إلى هذا الحد بكلامك و أنت تفكر بعكس ما تقول؟ اسمح لي، فأنا أحاول أن أفهم ردود أفعالك. لقد جرحتك قبل قليل، عندما تركتك دون مراعاة أهمية اعترافك. فاعلم أني ما فعلت إلا لأنك زعزعت كياني، و أني لم أرد أبدا إيذاءك. بل بالعكس، أريد لم أمنحك الكثير لأعيد إليك ابتسامتك الرائعة و مرحك."

في الغد عندما رآني مهمومة، اقترح علي أن أرافقه لبضعة أيام إلى واحة تقع في أعماق الجنوب. لقد أحس بهلعي. وافقت أن أشاركه لحظات السفر لأضع النقط على الحروف بخصوصي حياتي بل و حياتنا معا.

ذات يوم مع الفجر، جدد اقتراحه علي. أثر في صدقه. لقد كنت في حاجة بالخصوص إلى صداقته. عندما لاحظ أني لا أشاطره نفس أحاسيسه بدا لي تائها.حنينه إلى بلاده يجعله شديد التوتر. في النهار قرر أن يعترف لي:

- عزيزتي إيتري، آسف جدا لما حدث الليلة الماضية. أعرف أنك تتألمين، لكن حضورك يساعدني على تحمل منفاي. أعرف أن هذه أنانية من طرفي. لقد كنت أعتقد أني أمتلك روح مناضل، فجربت مثل الكثيرين غيري أيام الشباب، وراء سراب مثالي ألا وهو الدفاع عن قبائل الرحل و نمط عيشهم. اليوم، أشعر أنه غرر بي. فالواقع أن اللجنة الإدارية تفرض علي اتخاذ قرارات ليست في صالح الناس. أعترف بخطئي و أشعر بحنين فظيع إلى والديّ المعذبين الذين تركتهما في قريتي بالحوز.

ثم صمت و الحزن باد علي محياه. كان مجردا من كل أسلحته أمامي.عندئذ، أمسكت بكل شجاعتي لأقول له:

- اسمع يا مايسان، كل إنسان معرض لأن يخطئ معرفة مسار حياته. يجب تقبل الحقيقة. أنت اليوم ناضج و قادر على مواجهة صعوبات العودة. أنت طيب يا مايسان و تستحق العفو.

كان الليل حولنا ساحرا و النجوم تشع فوق رأسينا. وجدت نفسي، و دون شعور، أرتمي بين أحضانه فيطوقني بذراعيه القويتين. أحسست بحرارة جسده تسري في جسدي و هو يضمني بقوة إلى صدره. استسلمت طواعية لهذه الضمة الحميمية الأولى...

بعد مرور عدة أشهر، انتبهت إلى أني حامل. بكيت بحرقة و صديقتي تودة تعانقني. خففت علي مصابي بهذه الكلمات المبهمة: "إن الله سيبارك دائما أطفالنا يا عزيزتي. سيجتازون عراقيل "المقاومة الكبرى" حتى يتحملوا مسؤولية استمرار الحدائق الخمسة للمصالحة. سيعملون يدا في يد، من أجل تعايش

الشعوب. كوني شجاعة يا ابنتي. سيأتي اليوم الذي نصبح فيه أحرارا في تقرير مصيرنا."
كانت تودة قد وضعت من قبل بهذا المخيم، طفلة ذات عيون خضراء أطلقت عليها اسم سلمى.
خرج ابني إلى العالم ذات مساء أغبر هبت فيه عاصفة رملية هائلة. قضيت طيلة الليل أبكي مصير هذا الطفل المنفي رغم أنفه و أنا أضمه بقوة إلى صدري. في الصباح وجدت وجهه مغطى بطبقة من الرمل. كان مايسان أيضا يبكي و قبل مغادرته الخيمة قال يائسا:
" إيتري، أنت اليوم زوجتي أمام الله، و النجمة التي تنير حياتي. لقد فهمت كل شيء من ابتسامة الصحافية. كنت أغذي أملا مجنونا و أتمنى أن تكوني لي رفيقة دائمة ! اذهبي يا حبيبتي، اذهبي نحو مصيرك. أما مصيري أنا، فينادي في مكان آخر. سأساعدك على اجتياز الحواجز. فكي الرموز... و لكن عديني، عندما تتجاوزين المحنة أن تسامحيني."
كانت نظرة مايسان التي غمرني بها مليئة بالحب. شعرت، و أنا أطبع قبلة على خديه، بوحدة قاتلة. لقد ولد ابني قيس معاقا. كانت له خمس أياد صغيرة. نصحتني صديقتي تودة أن لا أخبر أحدا بوضعيته. اتبعت نصيحتها. لم يكن الأمر سهلا بالنسبة إلي. كان علي أن أكون متيقظة على الدوام. من جهة أخرى كان غياب مايسان الطويل يقلقني. ظلت الجملة الأخيرة التي نطق بها في خيمتي تسيطر علي: " إتيري سأساعدك. فكي الرموز."
بعد سنة، أخبروني أنه مات في حادثة طائرة. و سمعت الناس من حولي يتحدثون عن الانتحار. رفضت تصديق هذه الإشاعات. لقد كانت لديه رغبة قوية في رؤية والديه العجوزين بقرية طفولته الجميلة. كنت تعيسة بدونه. فهو يستحق أن يرى ابنه يكبر أمامه. لقد ضل الطريق لكنه مع ذلك، يتصف بخصال حميدة. بكيته طويلا و أنا أشعر باليتم مجددا مع ابني.
بعد مرور سنتين على هذا النبأ الذي أفجعني، أتيحت لي الفرصة لمغادرة المخيم. لم أصدق أذني و لا الشخص الذي أخبرني أن "لجنة الحكام" تدعوني للقيام بمهمة في الخارج. بعد ذلك أمرني بالاستعداد لمرافقته في أسرع وقت. طلبت أن آخذ ابني معي، لكن الرجل تردد قبيل أن يفهمني بأن ذلك مستحيل، و بأن ابني لم يعد ملكا لي. سلموا ابني رغم توسلاتي و صياحي لنفس اللجنة المسؤولة عن " التربية الوطنية". كان عزائي الوحيد وجود تودة التي أثق بها ثقة مطلقة. كان المبعوث الذي أخذني معه إلى إسبانيا يفرض علي أخذ الصور لاجتماعاته مع لجنة برلمانية. كان لا يتوقف عن اختلاق سيناريوهات لا تصدق لإثارة تعاطف مخاطبيه مع "الاجئين" في المخيمات حتى يجمع المساعدات المالية. و في نهاية هذه المهمة المزعومة، طلب مني تسليمه كليشيهات الصور و قال لي بأني أصبحت حرة !
أصابني الهلع. سيظل ابني قيس يتعذب عند هؤلاء الأوغاد. سينضاف مستقبلا، إلى جيش المرتزقة هناك في تخوم الصحراء. أما أنا، فرغم مأساتي كان علي أن ابحث عن مخرج. كانت خالتي التي تسكن بتيزنيت ملجئي الوحيد كانت عاقرا و تعيش مع فقيه غامض تقول عنه بأنه قريبها. أعتقد أنها تمارس معه السحر و الشعوذة. أحسست منذ الوهلة الأولى، أن حضوري و خاصة مشاكلي، تزعجها لدرجة أنها قالت لي صراحة:

"إيتري، عليك أن تذهبي من هنا. سحر ما أصابك كما أصاب أمك. ولن تترككما أصوات الصحراء في سلام. كيف تجرأت على مزج دم سلالتنا الطاهر بدم ذلك المغامر؟ لا يا ابنتي، لن آوي أبدا، تحت سقف بيتي خائنة مثلك..."
في تلك الليلة نفسها غادرت بيت قريبتي الوحيدة. قررت دون تردد، البحث عن أمي. في قلبي دائما مرارة ممزوجة بالأمل في إيجاد الطرق للحصول على أخبار تودة و ابني.

- لقد ذهبت أمي بدوني يا حياة، إذ لم يكن لها خيار. كان العار يعذبها منذ ولادتي. أنا الآن متأكدة من ذلك. قالت إيتري بعد صمت طويل.
- لماذا تقولين هذا الكلام يا إيتري؟ قاطعتها حياة.
- في بيت عمي لا أحد كان يجرؤ على ذكر اسمها، لأن عمي يمنع الجميع من ذلك. و عندما كنت أجتاز البهو كان الجيران كلهم يبصقون. و الظاهر أن خالتي أيضا لا تحبها.

صمتت إتري و ظلت ساهمة. بالكاد تناولت لقمة صغيرة أثناء العشاء. لكنها في الغد بدت و كأن شيئا لم يكن. لقد ضاعفت نشاطها إلى جانب حياة في مرأب السيارات لكون الحارس في عطلة منذ قدومها. تأكدت حياة، أكثر من أي وقت آخر، أن إيتري في أمس الحاجة إليها. تحس بها تتعذب و تعاني من الوحدة القاتلة، و في بحث دائم عن العلامات و الإشارات التي قد توصلها إلى أمها. و أنها تبحث بإصرار لمعرفة حقيقة ماضيها. قالت حياة في نفسها:
"إن إيتري مثلها مثل كاميليا، من أولئك النساء اللواتي ابتلتهم الحياة إلى أقصى درجة و اللواتي عانين الأمرين من الرجال أثناء ضلالهن. و يترقبن من يتفهمهن و يضمد جراحهن."

- لقد ذهب مايسان في أوهامه إلى أبعد الحدود. عادت إيتري تستأنف حديثها ذات ليلة. تحمل مسؤولية اختياره لأنه كان على يقين تام من أنه يعمل لصالح الشعوب المهمشة. كان هذا الرفيق الهارب، قد قرر الإنصات إلى قلبه عندما أحبني لفترة من الزمن، قبل أن يستأنف الطريق نحو مصيره.استرجع صورة جسدينا المغمورين بهواء الفجر المنعش و عيوننا المحدقة في أحد كثبان الرمال. ذاك الذي يصبح لونه أبيض، فورديا، ثم ذهبيا قبل باقي الكثبان. همس في أذني بلهجة صادقة:
" عزيزتي إيتري، زوجتي الغالية، يا رملي الناعم البهي، لغزك يحيرني. ارحمي قلبي. افتحي لي قلبك. صدقك يبهرني و تفزعني في نفس الوقت.طموحاتي تربكك و مع ذلك فحضوري إلى جانبك يخفف عنك. جسدي يرويك و لكن دون أن يسعدك. تعلمي أن تحبيني مختلفا. تحرري من الأحكام التي تدين الآخرين. في ثنايا العمر واصلي طريقك. لا تترددي أبدا. اذهبي حيث الواجب ينتظرك. سأنتظرك... في مكان ما من الكون... "

في الغد كتبت حياة لكاميليا:
" نعم ، عزيزتي كاميليا، إن عدم الاعتراف أمر صعب التحمل. صوت خالة إيتري يؤرقها. يصيح دائما بأن رفيقها في الصحراء و ابنها جعلاها تحيد عن الطريق المستقيم، و جلبا إليها اللعنة. لكن إيتري استطاعت المقاومة، و تشبثت بنداء

القلب.ستظل حتى النهاية تحمل الحقيقة.و ستصبح حرة بعد اجتياز المحنة الكبرى...
كاميليا، لقد تجرأت إيتري على خوض التحدي الأكبر. لقد أدت، مثلك، من لحمها و دمها ثمن صمت الجبناء. تألمت ألما عسيرا و هي تحاول تحمل مسؤولية فعلها. آجلا أم عاجلا ستنتصر الحقيقة الكبرى على الصمت القاتل، فزمن الاعترافات على الأبواب ! "

"مثل هذه المرأة لا تقف في منتصف الطريق." قالت حياة في نفسها. ذلك أن حياة متيقنة من قوة إرادة إيتري التي تجعلها تذهب إلى أبعد الحدود. هذا الإصرار من طرف صديقتها يثير إعجابها. إعجاب رغبت في نقله إلى كاميليا لدرجة لم تتمالك معها نفسها من كتابة رسالة أخرى إليها.

" كاميليا، هذا شعاع أمل يضيء أيام المعاناة المقبلة. انضمي يا ابنتي العزيزة، إلى هؤلاء النساء المكافحات اللواتي تتضامن معهن إيتري و هي تعد للنقاش الأكبر. تحاول أن تقوي الروابط التي حطمها الكذب، و أن تعيد الكرامة للذين لا صوت لهم. تستمد قوتها من رمال حدائقها الخمسة. و في أعماق كثبان مرزوكة، ذلك الفضاء الرائع موطن الوحي و الأصالة، تتوحد أصوات كل النساء الشجاعات في أنشودة واحدة:

أيتها الكرامة، أنت نورنا الداخلي،
أيتها العدالة، أنت الأمل الأبدي،
أيتها النساء المغتصبات، أيتها النساء المعنفات
أيتها النساء المكممات الأفواه،
أطفالكم، هم أيضا أطفال العالم:
أطفال منفيون على أرصفة الضواحي و مدن الصفيح،
باحثون عن التفهم،
أطفال تجسد لهم كلمتا "الكرامة" و "العدالة"،
في لحظات هاربة،
في عالم التمزق و الفطام،
صورة عالم مسؤول !

هؤلاء الأطفال هم أطفال تحدياتنا،
الأطفال الذين ولدوا في الغموض و عدم التفهم
و يحاولون شق طريق التسامح
في ظل تعدد اللغات و الأديان و الثقافات.

ستصنع إيتري كل سنة، لابنها قيس و لأيتام العالم
تاجا مرصعا بالنجوم الخضراء
تاجا من التصالح
داخل الحدائق الخمسة للأخوة.
و توجه كل سنة في شهر نوفمبر،

كتحية للغائبين،
تاجا أحمر مرصعا بدم الشهداء.

لقد بدأ التشرد الذي عاشته إيتري منذ سنوات في مدخل أغادير، تلك المدينة التي بدت لها غريبة بحلتها العصرية و بما تضج به من سواح يغزون الشواطئ و المقاهي و المطاعم و البازرات و الأرصفة. لم تحس بالسكينة و لا بمتعة هذا السفر، إلا عندما اتجهت الحافلة نحو إنزكان. فرغم الحرارة الشديدة و الجو الخانق و رائحة الحريق الممزوج بالغبار التي تلسع أنفها، فقد أحست بالانتشاء و هي ترى الماعز الأسود معلقا في الأغصان الشائكة لشجر الأركان. تتعاقب الصخور الجرداء من بعيد. و على حافة الطريق الضيق، يقف البدو الرّحل الراجلون أو الراكبون فوق الجمال، ليحييوا بحركة خفيفة من رؤوسهم، الشاحنة المنطلقة بأقصى سرعة. من حين لآخر، ترفع كل من إيتري و تودة يديهما لرد تحية الناس. و في أواخر منتصف النهار، عندما توقفت الشاحنة للتزود بالوقود، اقترحت عليها تودة القيام بجولة في شوارع تيزنيت الضيقة.
تحيط بالمدينة أسوار عالية من الطين. في ساحة صاخبة، تقف الحمير و الجمال الحالمة بالفضاءات الصحراوية. وسط الساحة يوجد بائعو عصير البرتقال و أطفال صغار ذوو بشرة برونزية و عيون سوداء، يبحثون عن سائح ما "تائه". أطلقت إيتري العنان لنفسها لتستمتع بهذه الألوان الصارخة و هذه الروائح القوية الآتية من أعماق الصحراء. تمر نساء ملفوفات في أثواب زرقاء داكنة، بخطى سريعة تاركات وراءهن صدى جلجلة أساورهن الفضية.
دعت تودة صديقتها إيتري للتفرج على الدكاكين الصغيرة التي تتلألأ واجهاتها الزجاجية بالمجوهرات الفضية الجميلة. بداخل تلك الدكاكين، توجد سلل تراكمت فيها الحلي القديمة النادرة من الأقراط و الأساور، بحيث يحتاج المولع بهذه الحلي إلى الصبر لفك تشابكها. و على امتداد الأقواس توجد محترفات صغيرة ضيقة و مظلمة يعمل بها حرفيون ماهرون. ينقشون الحلي و يقطعونها و يرصعونها بالجواهر لتصبح – كما هي عليه - مفخرة المدينة و مصدر السعادة لنساء تيزنيت. فالفضة هنا، رمز للهوية و رابط يربطهم بأسلافهم الذين يتميزون بالنبل و الشجاعة، و ليست عنوانا للثروة و الرفاهية.

واصلت إيتري بحثها في فضاء آخر. كانت تجلس وحيدة بمطار وارززات بالجنوب. شمس الربيع الحارة تعد بصيف قائض. كانت عيناها مثقلتين بالعياء عندما بدأت رحلتها عبر طريق طويل. لكنها لم تتمالك نفسها و هي تعبر حقول أشجار الورد المرتعشة على حافة الوادي حيث تتدفق مياه رقراقة تحت ظلال النخيل. واد زيز العظيم يمر تحت أقدامها قصور غامضة تكمل صورة هذا الجمال الإلهي !
عاد صبرها ينفذ من جديد و الأسئلة تحاصرها."يا إلهي، ما أبعد الوصول إليك يا أمي ! غمغمت إيتري متنهدة. هل تسمعيني؟ أما مشتاقة إليك كثيرا. تجتاحني رغبة قوية في أن أضع رأسي فوق ركبتيك. هدهديني بأغنيتك يا أمي العزيزة:

يا برّي برّاري
يا ركّاد الدّراري
اسمك يا بنتي

راه عزيز أو غالي
يا يمّا خوفي من الموت
و خوفي من اعمالي
خوفي من ضيقات لقبر
و من هْدير الفيساني

أحس يا أمي أني في منعطف حاسم من حياتي. صوتك يسكنني باستمرار. و فكرة الموت ترعبني. ترى، هل سأراك يوما ما يا أمي؟
سرت في جسدها رعشة لا إرادية و هي تنصت إلى المؤذن يؤذن في الجامع القريب. قراءة الآيات القرآنية تخفف عنها قليلا. "باسم الله الرحمان الرحيم..." هذه اللحظة من التأمل تجلب إليها قليلا من الراحة النفسية.
لم تستطع حياة تمالك نفسها. لقد هزت اعترافات إيتري هذه كيانها. أحست برغبة في التلاشي، في الذهاب بسرعة، في أن لا تنظر إلى أي اتجاه ما عدا الأمام. أن تقطع علاقتها نهائيا بصديقتها. أن تترك النسيان يفعل فعله. فإيتري تعذبها ببوحها هذا، دون أن تدري. تجعلها تعيش من جديد ماضيها الخاص. ذلك أن حياة التي تبدو في نظر الآخرين، قوية و قادرة على تحمل المسؤولية، مر عليها وقت طويل قبل أن تمحو من ذاكرتها كل الوجوه التي لا تستحق أن تستوطنها. لن تستطيع نسيان تمزقات الفجر، و ميلاد معركة خاضتها وحيدة، و لا الألم المحرر، و الحياة المهتزة بين فخدي تلك النفساء الداميتين. لن تستطيع نسيان الاختلاف الذي يولد من نفس الجسد ممزوجا بالخوف و العرق و براحة الأحشاء، ثم فرحة حصول المعجزة التي تبدأ معها المعاناة.

- ميلاد طفل !
- ميلاد صبية !
- ميلاد التحدي !

كلام إيتري يعكس شظايا من حياتها الخاصة. لقد زعزعتها قصة هذه المرأة. و جعلتها تدرك مدى عجزها. يؤلمها أن تراها تعيش نفس الرعب الذي عاشته و هي تعاني من ضغوطات محيطها متظاهرة بالرضا. و تحمل بداخلها تلك الأسئلة التي تعذبها و التي لا تجد لها أجوبة. تتدفق الذكريات و تتابع الصور. تتراءى لحياة خطوبتها في مدينة البوغاز هذه. و ذلك الحفل الفخم الذي ظل أعيان المدينة و عجائز الأسرة يتحدثون عنه. ثم تلك الحقيقة الفظيعة المدبرة من طرف الخطيب : طقوس الاحتفاء بالجسد المحجوب و الكلمة المكتومة.
وجدت حياة نفسها تسرح بعيدا رغم أنفها. تعود بالزمن إلى بداية ربيع حياتها عندما كانت تلهو وسط حقول الأزهار و هي ترى كل شيء حولها جميلا. و إلى جانبها، يسير ذلك الآخر الذي كان ورعا و نذلا بشكل غريب. كان سحر ابتسامته يجعل من الوهم حقيقة. كان مخرجا محترفا لمشهد في طنجة، في ذلك الحي المألوف الذي كانت حياة تعبره منذ ولوجها المدرسة. إخراج محترف... و كل شعرية الكلمات في هذه المدينة الفاتنة الجذابة التي تلتهم الشباب الساذج التهاما.
لم تشعر حياة إلا و هي تبوح بدورها، و بصوت مرتعش تقول:

- عزيزتي إيتري، إننا معا موسومتين بالجراح منذ طفولتنا. يجب أن نعرف كيف نتعايش مع كل ذلك و نحاول نقله إلى الآخرين. لقد جاء الوقت لتستمعي إلي بدورك. عندما بلغت العاشرة من عمري، استدعت عمتي الكبرى جدتي من أمي التي كانت أرملة فقيه مشهور و قالت لها:
- لالا رحيمو، لقد حان الوقت لنذهب بحياة إلى خدوج "الثّقّافة"، لتعمل لها عملا يمنع أي رجل من ولوجها قبل الزواج.

في فجر الغد، و بمجرد ما انتهت جدتي من صلاتها، أيقظتني بلطف و قدمت لي فطارا شهيا كفطار العيد. و بحركات و كلمات رقيقة، ألبستني ملابسي و مشطت شعري و عطرتني بماء الورد. بعد ذلك أمسكت يدي بقوة، و خرجنا على رؤوس أصابعنا و بصحبتنا باتولة ابنة عمتي البالغة من العمر الثالثة عشرة و التي عاملتها جدتي بنفس ما عاملتي به.

استقبلتنا امرأة بدت لي مسنة، تلبس قفطانا بلون المشمش مطرز بشكل أنيق من الطوق و الأكمام والحواشي. و فوقه "دفينة" بيضاء شفافة تتخللها ورود بارزة. يلف جبهتها "حراز" وردي مطرز بخيوط الحرير الأخضر اللامع، و تتمنطق بحزام عريض جميل مصنوع من خيوط الذهب يجعل ثنايا هذا اللباس تنساب إلى الأسفل انسيابا رائعا. ما إن دخلنا حتى راحت تتحسس صدري و إبطي و عانتي.

فعلت نفس الشيء مع ابنة عمتي. ثم حركت رأسها قائلة:

- لالا رحيمو يمكنني أن أعمل عملا لحياة. أما باتولة فلا يمكنني ذلك. لقد نبت الشعر حيث تعلمين. و لذلك لن يكون " الثقاف" مفيدا لها.
- بلى. يمكن ذلك بإذن الله. ردت جدتي منزعجة. كل ما في الأمر أنها كبرت قبل الأوان. ثم إن أنظار رجال حيّنا أصبحت، يا لالا خدوج، مشدودة إلى باتولة و حياة. لذلك علينا أن نحميهما قبل أن يلوث العار سمعة عائلتنا. كنت و ابنة عمتي ..... مشدوهتين ؟ أمام هاتين المرأتين اللتين تتصرفان في حياتينا و جسدينا في هذا الصباح الباكر.

عندما وضعت "التّقّافة " عصابة على عيني أحسست بجسدي يرتعد من الخوف. فهمت بشكل ضبابي أن السرية المطلقة يجب أن تحيط بحركات و أفعال هذه العملية التي ستجعلنا في منأى عن كل اغتصاب جنسي. كانت كل حواسي متنبهة. سمعت صوت الماء يصب في سطل حديدي إنه الماء المطهر، الماء المبارك الذي سيحمني و ابنة عمتي من نجاسة الرجال المتعطشين للجنس و الدم . إن ما تقوم به لحمايتنا فيه إعادتنا إلى بطن أمنا.

عندما سمعت همسات "التّقّافة"و هي تبتعد قليلا بابنة عمتي، غامرت بإلقاء نظرة من تحت العصابة التي رفعتها خفية. ما رأيته أصابني بالرعب. كانت ابنة عمتي تقف و قد باعدت فخديها التين تتوسطهما قصعة مصنوعة من الطين ممتلئة بماء تطفو فوقه أوراق الورد الأحمر و الأبيض.دغدغت أنفي رائحة البخور و القرنفل و ماء الزهر.كان تباني و تبان ابنة عمتي منشورين فوق إزار أبيض، و امرأة أخرى ترشهما بماء القصعة. سمعت ابنة عمتي ، التي تبعد عني بخطوتين تبكي. أحسست بالرعب يعتصر أحشائي.

ما كدت أتحرك حتى أمسكت "التّقافة" بيدي و أمرتني أن أباعد ما بين فخذي فوق قصعة أخرى.مررت يدها الضخمة المدهونة بمادة لزجة فوق عضوي التناسلي و بدأت تدلكه بما أوتيت من قوة لدرجة جعلتني أصيح من شدة الألم و

الرعب. نفس التدليك الفظيع مارسته على صدري و إبطي و سرتي.كانت تصاحب حركاتها بهمهمات تتبعها بهذه الازمة:

- فليحفظها الله من الرجال الأوغاد... الكلاب ... الذئاب. و يصيب كل من يجرؤ على الاقتراب من جسدها بالعجز. و ينتزع منه الطاقة و الرغبة. الله أكبر ! ليظل هذا الكنز طاهرا و مغلقا إلى أن أسلمه مفاتيح التحرر.

كات جسدي يرتعش. فهمت تلقائيا معنى هذا الكلام. لكن رغبة واحدة كانت تسيطر علي.أن ألبس تباني و اضع حزامي و أضفر شعري من جديد و أغادر هذا المنزل. أن أهرب من يدي هذه المرأة التي تعجنني بأصابع يديها و هي تغمغم كلاما متقاطعا.

أ رأيت يا إيتري، لقد حملت كابوس الطفولة هذا معي زمنا طويلا. لم أنس لحظة واحدة ، و أنا أجلس قرب زميل لي في الدراسة أو رجل في الأوتوبيس أوفي أي مكان آخر ، يدي تلك المرأة الضخمتين فوق جسدي. حتى اليوم يحدث لي أن أرى فجاة تلك القصعة المشؤومة التي تغطيها أوراق الورد ن فابتعد فأضم بشكل لا إرادي فخدي و أنا أبتعد من زوجي. سنوات بعد ذلك ، عندما تزوجت ابنة عمتي باتولة اندلعت فضيحة ليلة زفافها. لقد غادر العريس و هو..... فراش الزوجية لينادي على النكافة و يعترف لها قائلا:

- لالا، لا أستطيع الدخول بالعروس. ما إن أقترب منها حتى تخور قوتي. أرى أن مقاومتها لي غير طبيعية. لا يزال الإزار أبيض اللون. لم تخرج منها أي نقطة دم .

أصاب الهلع النكافة فراحت تخبر العائلة المجتمعة في الغرفة المجاورة لغرفة العريسين. لكن إحدى عماتي ما إن رأت العريس يخرج من غرفته، حتى أطلقت زغرودة قوية جعلت باقي أفراد العائلة يهرولون نحوها. إلا أن الصمت عم الجميع عندما عرفوا السبب الحقيقي الذي جعل العريس يخرج في الساعة الثالثة صباحا. أصاب الجميع الرعب و هم يتذكرون "التقافة". لقد ماتت قبل مدة و حملت معها سر فك "ثقاف" ابنة عمتي و طبعا فك "تقافي" أنا أيضا. اقترح أحدهم إحضار جراح في الحال. أحدث هذا الجراح فتحة صغيرة في بكارتها التي كانت صلبة بعض الشيء. لم تتوقف ابنة عمتي، من فرط خجلها ، عن البكاء و دعوة أمها إليها. و حوالي السادسة صباحا كاد نزيف أن يؤدي بحياتها. لقد عكر صفو هذه الليلة التي تكون عادة، ليلة سعيدة.

هل أثر "التقاف" على ابنة عمتي؟ من يعرف ؟

أسئلة كثيرة و بدون أجوبة بقيت أطرحها طيلة مرحلة المراهقة.

" عزيزتي كاميليا،

كانت أمسيات البوح هذه تشكل أرضا خصبة ل....لا أستطيع أن أعرف ما السبب الذي أثار رغبتي في الحديث على إيتري. و أن أكشف لها عن أشيائي الحميمية. لقد أحسست هذا المساء أنني هشة أمامها. يا لصديقتي المسكينة ! هي أيضا كانت تنوء تحت وطأة أسئلة عديدة تسمم حياتها و تتعلق بالغياب الرهيب للمعلومات حول ولادتها. تمنيت من كل قلبي أن أخفف عنها بعض محنتها.

ما إن عادت إيتري إلى غرفتها و اندست في فراشها حتى انفجرت باكية. كانت تعبر عن ألمها الداخلي. تحاول أن تتخيل صوت أمها. تريد أن تستعيد الحرارة التي هدهدت طفولتها.

مع طلوع الفجر استيقظت مرتاحة.نهضت من فراشها و فتحت الكتاب الذي أهداها إياه ميسان ليلة ارتباطهما. يحكي أسطورة الشعوب الحرة في تفكيرها. أما هي، فلن تكون أبدا حرة في تفكيرها. رأسها مزدحم بصور قاتمة و الأفكار الغامضة. يتوجب عليها أن تتعلم كيف تخفف من ضغطه. و من أجل ذلك فهي في حاجة ماسة لهذا السفر إلى تيزرو.

صباح الغد وضعت مون أمامها الجريد و هي تعلن بكل فخر:

- لقد قطعت طرقا طويلا عزيزتي إيتري. لقد أصبحت مشهورة بفضل تحقيقاتك. و يشيد النقاد بصورك.
- يا له من نجاح باهر يا مون. بدون أب و لا أم و لا زوج، و فوق كل ذلك محرومة من ابني الوحيد . إنه.... حياتي !
- لا تكوني ظالمة لنفسك و بالخصوص لا تحكمي على ما لا تعرفينه.ستعرفين الحقيقة ذات يوم.ثم إننا سنهيب بالعلم كله إذا اقتضى الأمر ذلك لتحرير ابنك من هؤلاء المرتزقة.
- شكرا يا مون. لكنك أنت و غيثة غير محرومتين من أمكما.فهي حاضرة معكما باستمرار.تتقاسم معكما فرحة النجاح و تخفف من وطأة الألم عليكما... ردت مون بغضب و هي تواجه حياة. ابنتيك محضوضتين يا حياة. أنت تفهمين .....

ألقت عليها حياة نظرة طويلة قبل أن ترد قائلة:

- ماذا تعرفين عن حياتنا ؟ عن احتياجاتنا ؟
- ثم تداركت نفسها. ربتت على كتف إيتري و خرجت مسرعة من الصالون دون أن توجه أية كلمة أو نظرة إلى مون و غيثة. عندما آوت إلى غرفتها، لم تستطع أن تبتلع جرعة واحدة من مشروبها الساخن. أحست بعقدة في حنجرتها. تزايدت وتيرة خفقان قلبها. ندمت ندما شديدا على ما قالته أمام إيتري. فجأة، كل الأصوات المألوفة أصبحت تزعجها. مواء القطة...ضجيج الحاسوب... اتجهت نحو الشرفة. أغمضت عينيها و هي تتخيل زرقة البحر هناك في الأعالي حيث قريتها البيضاء. استنشقت كمية من الهواء قبل أن تلتحق بإيمي زهرة في الأستوديو.

ما إن رأت إيمي زهرة حياة في فتحة الباب حتى صاحت بها:

- حياة، أتعرفين أن حضور إيتري خفف علي كثيرا. لقد رأيت مدى ارتباطها بك و بأبنائك. معها أستطيع أن أستحضر الذكريات التي بقيت لي من ابني تيمون، بكل سهولة. أتمنى من الله أن يتغمده برحمته.
- معك حق إيمي، فإيتري حساسة جدا. أكدت حياة كلامها بصوت متهدج.

و دون سابق إنذار، انفجرت دموعهما في صمت، كل واحدة لأسبابها الخاصة.

هناك في هضاب تيزرو كان منزل إيمي زهرة المبني بالطين و الذي يشبه تلك المنازل التي تظل قائمة فقط بفضل الله و مهارة الرجال. منازل تتناغم بهندستها المحلية مع الطبيعة المحيطة بها. لكن السيل جرف معه ذات يوم عاصف، المنازل و الناس و الحيوانات. لم يتبق من بيت إيمي زهرة إلا بعض جلود الأكباش و هيكل سرير حديدي و صندوق من الفضة كان قد قدم لها في جهاز العرس. ما عدا هذا الصندوق، رفضت إيمي زهرة أن تأخذ أي شيء من ممتلكات عائلتها. لقد كان

رفضها عبارة عن جواب متأخر على الكلام الجارح الذي قذفتها أمها به يوم طردتها من المنزل و هي في الخامسة عشرة من عمرها.
مرت أربعون سنة ،و مع ذلك لم تسامح إيمي زهرة أهلها على ما فعلوه بها. لقد ظل جرحها مفتوحا. لذلك عندما سمعت على أماج الإذاعة بفيضان منطقة مراكش، اضطرب كيانها و أحست و كأنها تيتمت للمرة الثانية. فالماء يذكرها دائما بقطع علاقتها بعائلتها.
هذا المساء، وجدت حياة أعصاب إيمي زهرة متوترة مثل أعصابها، خصوصا عندما قالت لها بكل اقتناع :

- يجب أن لا تدوس الأقدام أبدا الزرابي المنسوجة بأيد النساء. لأنها بذلك تكون و كأنها تطأ قلوب النساء اللواتي يستوطن قريتي هناك في الأعالي، و اللواتي استهلكن حياتهن و بصرهن من أجل إطعام أسرهن.
- أنت محقة، إيمي زهرة. علينا أن نقوم بحملة لصالح الإبداع النسائي لتشجيع الناس على تعليق الزرابي على الجدران لأنها جميلة جدا. قالت حياة و هي تبتسم.
- ألوان هذه الزرابي تذكرني بالجبل الذي أنتمي إليه. واصلت إيمي زهرة كلامها. أسمع صفير الريح في الوادي و الماشية تسرع نحو الحقول. و النساء الملتفات بالضباب و الدخان يشعلن نار الأفران لطبخ خبز الفطور.

عندما نهضت إيمي زهرة فجأة، لتلبس جلبابها، تخيلت حياة قامتها المنطلقة عندما كانت شابة. " تفوح منها رائحة مزيج من الحشمة و الإصرار." قالت حياة في نفسها و هي تتساءل عن اهتمام الذي أصبحت إيمي زهرة توليه منذ مدة لنزيلات دار العجزة.

- يا إلهي، أحس أن عضلاتي تصدأ يوما بعد يوم. قالت إيمي زهرة لصديقتها التي كانت تنظر إليها بإعجاب و هي تلقي شالها الوردي فوق كتفيها. و لكن القليل من النشاط الذي تبقي لي أريد أن أكرسه لهؤلاء الشيوخ المساكين الذين يقيمون بدار "ميستر خوش".
- إنه جو طنجة الرطب من يتسبب لك في هذه المشاكل الصحية الصغيرة. أنا أيضا أشعر أحيانا بالألم في ظهري و ساقي. إنها ضريبة التي تؤديها كل امرأة في سننا يا صديقتي العزيزة.

في هذه اللحظة فرضت ..... الفيلم الوثائقي نفسها على حياة، فإذا بها تواعد نفسها قائلة:
" يجب أن لا تنتبه مون لظلال التعب هذه التي تبدو على وجه إيمي زهرة. سيكون ذلك هدية تقدم للرجال الذين .... و فعلوا بها ما يحلو لهم قبل أن يلفظوها كنواة ثمر. لن يحدث هذا أبدا. ستطلق إيمي زهرة العنان لقلبها ليتحدث و رأسها مرفوع ! "
نهضت بسرعة لتعدل قب جلباب إيمي زهرة، و هي تقبل وجنتيها و تكرر قولها:
- وشمك رائع ! ستظلين في رأيي العروس الخالدة لجبال تيزرو المكسوة بالثلوج ! و دون سابق إنذار، و بشكل تلقائي، أطلقت إيمي زهرة صيحة.... قبل أن تنطلق بصوت متناسق في ترديد أهازيج منطقتها.
" الغناء يمدني بالقوة. قالت فيما بعد لحياة و هي تسترجع أنفاسها. أشعر و أنا أغني أن لا شيء يستطيع المساس بي.".

في تلك اللحظة بالذات انطلق صوت المؤذن ينادي لصلاة المغرب بحيث لم تستطع حياة التمييز بينهما. انتابها إحساس مؤلم في أسفل بطنها. أحست بالرغبة و الحنين إلى حضن زوجها.

- إن من لا تحرك فيه أغانينا أي شعور لا يمكنه أبدا أن يتكلم. قالت بلهجة واثقة. أنا الآن حققت أخيرا، التصالح مع نفسي. أعتقد أنه أصبح بإمكاني أن أبكي ابني تيمون دون ندم. ثم فجأة، اتجهت إلى حياة قائلة: " و أنت من فضلك، يجب أن تستمري في القيام بالإجراءات من أجل تنفيذ المشروع الصحي في تلك البلدة البعيدة رغم المقاومة القوية التي تبديها المؤسسات الرسمية.
- أنت تعلمين إيمي، أن الصراع الدائم يرهق الإنسان و يدفعه إلى الاستسلام في نهاية المطاف، حتى و لو كان هذا الصراع من أجل قضايا عادلة.
- و لكننا نطالب فقط بحق أبنائنا في الصحة و الكرامة. و إذا استسلمت كل النساء لليأس فإن شباب بلادنا سيستعيرون ؟ منا. ثم إنه بدون .... و بدون دعم سينتهي بهم الأمر إلى مغادرة البلاد نهائيا ذات يوم.
- إن شبابنا يا صديقتي، لا يحلم مع الأسف، إلا بشيء واحد: الهجرة، و بأسرع ما يمكن ! و كما يقول الشاعر:" الذهاب هو نوعا ما، الموت..." قول يتأكد كل يوم في مضيق جبل طارق ... أ ليس كذلك؟

قطع عليهما الحوار رنين جرس الباب. أطل فجأة، من فتحته رأس صبي الفرن كريملة. ألقى عليهما التحية و هو.....

- مساء الخير لالا حياة. مساء الخير إيمي زهرة. ها هو خبزكم لا يزال ساخا.

كانت بالفعل رائحة الخبز المحمر تفوح من عتبة الباب.

- كيف حال ركبتيك إيمي زهرة؟
- أحسن قليلا. شكرا.

ثم لاحقته بنظراتها و هو يخرج من الباب و أحست بانقباض في صدرها. همهمت: " لقد عرف كريملة ابني. يا إلهي كم أود لو يحدثني عنه..."

عندما رأتها حياة ساهمة، راحت تمازحها لتخرجها من حالتها تلك.

- هل ستعودين لتناول العشاء معنا أم أنك ستقضين الليلة مع ....في الحمام ؟
- لا تنتظروني. هذه الليلة سنذهب بكل "عجائزي" كما تسمينهم إلى الحمام. ما ينتظرنا من عمل يكفي لقضاء الليلة كلها.

...كان الحفل في أوجه عند الكونتيسه لويزة. كانت الحديقة ساحرة.الشموع مشتعلة في الفوانيس المعلقة على امتداد الممرات المحفوفة بالورود.و النادلون يجتازون.... بسراولهم الحمراء و صدرياتهم الخضراء و هم يحملون صواني مليئة بأصناف الحلويات. و ليزة في كامل أبهتها تستقبل الضيوف أمام الباب. كانت ترتدي جلبابا رائعا أزرق اللون....و.... مرصع بالصقلي؟ مما جعل هذه الكونتيسه تبدو فاتنة رغم بلوغها السبعين من عمرها. كان المدعوون يتوافدون في جماعات صغيرة. أزياء كل النساء رفيعة الذوق و مستوحاة من القفاطين المغربية. بدأ الموسيقيون يعزفون المقاطع الموسيقية الأولى التي سرعان ما تحولت إلى .... عندما احتل الراقصون الحلبة. فقد كان اعضاء فرقة كناوة يدورون وهم يضربون

قراقبهم بعضها ببعض و يقفزون بحركات تثير الدوار. كانت مجموعة حمادشة تتناوب معهم بشكل منتظم مما يجعل بعض المدعوين ينغمسون في الرقص حد الجدبة إلى أن ينهار الجميع مرهقا، فوق مساند مزركشة ملقاة على الزرابي. تتوقف الموسيقى لحظة، لتحل محلها الهمسات و أصوات المرح و البهجة. يستغل الراقصون هذه اللحظة ليتذوقوا الشراب المتميز الذي يقدم لهم و الذي يتكون من الشاي الأخضر و عصير العنب المعطر بالقرفة و أوراق النعناع. ثم تصدح من جديد، الموسيقى الأندلسية داعية العشاق إلى الحياة الناعمة. فجأة، اقتحم حلبة الرقص الممثل الفرنسي ج.ب.ب. .... بقامته الرياضية مصحوبا بالممثلة لكوميدية المثيرة أو.أ. قالت إيتري في نفسها و قد أثارتها هذه الممثلة بزيها الأحمر الطويل و سروالها المنتفخ و شعرها الأشقر الذي يتطاير فوق كتفيها.

" و أنا التي كنت أعتقد أنها أطول قامة ! "

كان صدى الموسيقى المرتفعة يتردد في الجبل. استمر الحفل حتى الرابعة صباحا. كانت مون و إيتري، اللتين كانتا من بين المدعويين ، مبهورتين بهذا الحشد الغريب. كانت مون قد ألحت على إيتري أن ترافقها إلى الحفل لتخفف قليلا على نفسها. لكنها لاحظت و بأسى شديد، أن صديقة أمها ظلت هذا المساء، غريبة عن أجواء المرح التي تغمر حدائق إقامة مرشان الفخمة. كانت نظرتها ساهمة. ابتعدت لحظة عن الراقصين، و استندت إلى جذع شجرة سرو. فجأة، سمعت صوتا يخرج من الظلام يهمس لها:

- مساء الخير إيتري. هل تقبلين أن نتسامر معا ؟ أنا مثلك وحيد. تعالي. هناك هائل من النجوم علينا أن نعدها.

إنه سليم ! كادت إيتري أن تنهار من شدة المفاجأة. لم تشعر إلا و هي تلقي بنفسها بين ذراعيه. في وقت متأخر من الليل، عندما فاجأت مون كلا من إيتري و سليم غارقين في حديث حميمي طويل، في خيمة كبيرة بعيدا عن المدعويين، ابتسمت و هي تقول في نفسها: "يا إلهي، ما أصغر العالم ! يا لهذه الأدوار التي يلعبها القدر أحيانا !"

تذكرت اعترافات إيتري لحياة عندما حدثتها عن مزايا سليم و انجذابها نحوه أثناء التجمع الكبير. كان سليم غالبا ما يردد أمامها كلامه هذا: " علينا أن نعيش يا إيتري، فوق تخوم الصحراء. أن نعيش و نتذكر، للاحتفاء بذكرى الغائبين. أن نعيش من أجل أولئك الذين ماتوا وتركوا شيئا ما منهم فوق هذه الأرض من أجل سعادتنا.

لا تبتعدي عني يا إيتري. حافظي على صداقتك لي ..."

هذا المساء ، تحت أغصان الجكراندة المزهرة، قبل سليم إيتري بكل حنان. ثم أحاط عنقها بذراعيه و ترك نظرته تغوص في أعماق عينيها. استسلمت إيتري لكل الأحاسيس التي أثارتها مفتونة بحنان و رقة صديقها التي وجدته من جديد.فجأة، اجتاحت الحرارة جسدها كله. أغمضت عينيها لتتخيل جسد النبض بالحرارة لطفلها الصغير الذي أصبح غيابه مع مرور الزمن قاسيا. كانت كل أحاسيسها ملتهبة. حنينها إلى قيس لا يطاق.

و مع ذلك ، فإن هذه الليلة الفريدة التي عاشتها قرب سليم خففت عليها كثيرا و أكدت لها حبها الخفي لسليم منذ أيام المسيرة الخضراء في الصحراء. لم يكن في هذه الليلة، بد من الاعتراف بالحقيقة. لقد اسمعها سليم كلاما حلوا و تجرأ على القيام بحركات طالما حلمت بها ! لقد أعاد حضوره هذا الأمل بعض الأمل

يسري في عروقها.سيكون فراقهما ممتعا في ظل حمى الانتظار. لكن الانتظار المرهق لوعد آخر لا يزال حيا.ذكرى قطعة لحم ساخنة و ناعمة التي تسكن لياليها. طفلها الذي اضطرت إلى تركه هناك بين أيدي الغرباء.مرت أمام عينيها كل المحاولات التي قامت بها من أجل استرجاعه. فجأة انفجرت باكية. أحاط سليم ، بكل حنان، كتفيها بذراعيه و همس في اذنها:

- لا تحزني يا قمري. افتحي عينيك و انظري حولك علامات الخلاص..."

حركت هذه الجملة الحميمية التي نطقها مائسان ذات يوم، أعماقها بقوة.انطلقت صيحتها تحطم سكون الليل:

- أخبرني يا سليم أرجوك، أين هو ابني ؟ هل هو حي ؟ هل هو معك ؟ و أين ؟

حرك سليم رأسه بالإيجاب و هو يجرها نحو تعريشة توجد في آخر الحديقة. كاد أن يغمى عليها ما إن رأت وجه رفيقتها القديمة تودة خلف جماعة من المدعويين.

ما إن اطمأنت مون على مصير إيتري حتى راحت تنسحبت خفية من الحفل عبر أشجار السرو الضخمة و تجتاز البوابة الكبيرة. و دون أن تودع لويزة، ركبت سيارتها و انطلقت. صورتان مرتا بسرعة أمام عينيها. صورة أيمي زهرة أمام منول النسيج غارقة في إبداعها و صورة كاميليا منحنية على قطعة الثوب التي تطرزها، حبيسة زنزانتها. قررت مون أن تستدعي في الحال الرئيس المنفذ لتبدأ تصوير الحوار مع الشيخة إيمي زهرة ابتداء من الغد.

# ليلة الغموض

في حمام المدينة القديمة، كانت أجساد النساء رطبة و مسترخية. تتلامس دونما إحراج، و هي تتزاحم قرب الحوض الكبير الممتلئ بالماء الساخن. أجساد منتعشة لشابات في منأى عن الأنظار المتعطشة أو المستنكرة. أجساد تستمتع بالحرية لبضع ساعات، بعيدا عن الوعظ اليومي : "غطي صدرك ! احشومة، عيب ...البسي سروالك بشكل لائق... اخفضي بصرك..."

في الحمام تتوطد العلاقات و تتدفق العواطف و تتحاكى الذاكرات. ذات يوم من أيام شهر شعبان، عندما رافقت إيمي زهرة نساء دار العجزة إلى الحمام الأسبوعي أحست بأمينة، إحدى النزيلات الجديدات، تمسك بها. كانت تلهث و هي تتمدد فوق الحصيرة. أسندت رأسها إلى صندوق، و هي تحدق فيها:

- إيمي زهرة، أختي العزيزة، اقتربي مني و انصتي إلي جيدا. أريد أن أتكلم لآخر مرة. ما سأبوح به لك هذه الليلة صعب للغاية. لكنني أعرف أن ابنتي، أينما كانت، لن ترتاح إلا إذا تكلمت. أتكلم اليوم، لأني أشعر أن بوادر دولة الحق و القانون تلوح في بلدنا. لقد وصلت حياتي نقطة النهاية. نحن الآن في سنة 2003 أ ليس كذلك ؟ ابنتي اليوم بدون شك، بلغت مرحلة النضج. أنها شجاعة. أعرف أنها تسعى لاكتشاف السر. ترغب في معرفة الحقيقة الكبرى. أراها منذ الآن تمسك بيد موثوق بها لن تتخلى عنها أبدا. أراها عبر

نظراتي المضببة. اليوم، أيديهما متوحدة و خضراء. أرجوك، اعملي ما في وسعك على حماية هذا التوحد. إيمي زهرة، اخبري ابنتي أن أيامي كانت سوداء منذ تلك الليلة المأساوية. ليلة الظلام حيث تجمد ركن من أركان قلبي. تلك الليلة التي أرغمني فيها رجال الظل – و ما أكثرهم – على التخلي التنكر لقطعة من كبدي. لقد دفعوا بإيتري إلى التيه. منذ ذلك الوقت قررت إرادتي المتحدية رفقة ضحايا أخريات أن تعيد النظر في شفرات و قوانين رجال الظلام. أنا اليوم مطمئنة. سينتصر قانون البذل و العطاء لصالح أطفال المستقبل. لا أريد بأي وجه من الوجوه أن تعرف ابنتي أني امرأة ساقطة رغما عني. أمام ابنتي مصير عظيم. قولي لها أن تمثل:
النساء الشجاعات في هذا البلد، إلى الأبد،
العواطف المتأججة بداخلي و التي تنير أحلامي،
تقود خطواتي عبر التاريخ المعلق،
و التي تضيء هذه .....
و هذا النسغ الفتي لبقائنا
قولي لها أيضا
بأن الأمل سيظل دائما يختلج
في قلوب الأبرياء.

طفلها حقيقة إنسانية
موشاة بالآلام و بالآلام المتجددة
و لتعمل أحلام المرأة على تجديد
التجمع عبر الحوار
و على فضح غطرشة المتكبرين
بمصالحة كل الشعوب التائهة
في عالم الإخوان و الأخوات
الجديرين بالتراث.
من أجلها، و من أجل كل نساء العالم،
سيتألق النرجس في ظل الاعتراف
و من صندوق الأسرار، في ملتقى الحضارات،
ستتدفق ا لحرية و الانعتاق !

كانت أمينة تلهث و هي تتكلم. و ما إن أنهت كلامها هذا حتى مدت لإيمي زهرة " صندوق الأسرار" الذي أخرجته بكل عناية من تحت وسادتها، ثم أغلقت عينيها بكل هدوء.ارتسمت ابتسامة مريحة على شفتيها التين كانت تخرج منهما شذرات جمل تتخللها تنهيدات حارة:
" كنت صغيرة جدا عندما فرضت علي عائلتي الزواج من أحد الشبان. كان لطيفا معي، لكنه لا يحس بأي انجذاب نحوي. لم يحدث بيننا أي اتصال جنسي خلال الستة أشهر الأولى من حياتنا المشتركة. كان زوجي يستقبل في بيتنا، مرة في الأسبوع، جارنا فقيه الحي ليتناول العشاء معنا. و كان يصر على أن يكون العشاء كسكسا فيه الكثير من الأعشاب و التوابل. وهي وجبة تستعمل عادة، للنساء العاقرات، اللواتي يتناولن بكثرة هذه " التْساخن" من أجل الإنجاب. كنت أهيئ

الطعام دون أن أجرؤ على طرح أي سؤال. بعد تناول العشاء كان الفقيه يغسل يديه، يتجشأ مطولا ثم يبدأ في قراءة آيات من القرآن الكريم هو و زوجي. يتوقف للحظات يشرب فيها الشاي، ثم يعود إلى قراءة القرآن من جديد حتى طلوع الفجر. بعد صلاة الفجر، يهيئ له زوجي فراشا في الركن القصي من غرفة نومنا، متمنيا له نوما مريحا و حجا مبرورا.
بعد مرور ستة أشهر على هذا الحال، في أحد أيام الجمعة، طلب مني زوجي أن أضع الكثير من زهر البرتقال في الشاي.لم يأت الفقيه تلك الليلة ليتناول معنا وجبة العشاء. كان زوجي طيلة الأمسية لطيفا جدا معي. حوالي الساعة العشرة، طلب مني ان آوي إلى فراشي لأرتاح. قمت و أنا أشعر بالسعادة تغمر قلبي و بتعب غير معتاد يثقل جسدي. بالكاد كنت أسمع زوجي و هو يطفئ كل أضواء الفوانيس. حاولت أن أفتح عيني لكنهما كانتا ثقيلتين. ساد المنزل صمت رهيب، ثم غرقت في النوم لأستيقظ بعد ذلك على صوت سطل يغرف به الماء من المطفية الموجودة بالبهو الداخلي للمنزل، و في نفس الوقت أحسست بشيء ثقيل فوقي و آلة صلبة تحاول اختراق أسفل بطني. تحركت محاولة وضع يدي على بطني، لكن يدا مثلجة منعتني ... ظل ذلك الشيء الصلب و اللزج في نفس الوقت يخترق جسدي. نفس اليد تضغط على أعمق أعماقي. أغلقت فمي كي لا أصيح. فهمت أن زوجي استطاع أخيرا أن يؤدي واجبه الزوجي نحوي...
قلت في نفسي: " واجب الزوجة هو خدمة زوجها." همس زوجي في أدني متمنياته لي بالرخاء و الخصوبة الشيء الذي دعم لدي الإحساس بالطاعة و الاستسلام. استغرق كل هذا مدة من الزمن لم أعد معها قادرة على التحمل. بكيت في صمت. ما إن صاح ديك الصباح حتى نهض زوجي فجأة، من فوقي ليتوضأ.
لقد كنت تائهة يا إيمي زهرة. حتى الآن لا أستطيع أن أقول لك ما إن كنت سعيدة بكوني أصبحت أخيرا امرأة. كل شيء بقي غامضا في ذهني و باردا في جسدي، مع ذكرى ذلك الشيء الفظيع الذي كان يمزق أحشائي.
غالبا ما كنت أتساءل أمام سروال ليلة الزفاف الذي ظل يرقد نظيفا في عمق صندوقي، عن ألاعيب الحب التي كانت صديقاتي تحدثني عنها.كنت مشتاقة إلى تلك اللمسات الرائعة.
في اليوم الموالي لتلك الليلة اللعينة، غاب زوجي طيلة النهار. عندما عاد في الليل تجاهل وجودي تماما.
تتابعت بعد ذلك أيامي عادية.بدون مفاجآت و لا أحزان. عبثا بقيت أنتظر زيارة أخرى من زوجي تكون أحسن حالا من المرة السابقة. لكنه لم يكلف نفسه عناء الاقتراب مني أو ملامستي. فانتهى بي المطاف أخيرا، إلى عدم التفكير في ذلك، إلى أن جاء اليوم الذي عرفت فيه أنني حامل. صحيح أني كنت أتمنى هذا الحمل، لكنني لم أشعر مع ذلك، بأية سعادة. قضيت أيامي طريحة الفراش، غارقة في النوم ليل نهار. عندما وضعت ابنتي حدث أغرب اكتشاف في حياتي. كنت سعيدة و فخورة بابنتي. أما زوجي فظل صامتا كعادته، و لم تظهر عليه أية علامة تدل على الفرح. و مع ذلك فقد أصر على أن يختار اسما مذكرا لابنتنا. يحدث أحيانا، في غيابي، أن يحمل ابنتنا بين ذراعيه و يدخل معها غرفة نومنا و يغلق الباب.كانت جارتنا تسمعه و هو يلاعبها و يضحك معها. و رغم تكتمه هذان فقد كنت أشعر بالسعادة لكونه لا يكرهها. كنت غالبا ما ألاحظ احمرار عيني

زوجي. تخيلته يبكي الولد الذي طالما تمنى إنجابه بدون شك. لم تتحقق أمنيته أبدا، ما دام لم يشاركني الفراش مرة أخرى.
و على كل حال لم أعد أنتظر شيئا... تعلمت العيش مع نساء العائلة الأخريات. كنت أقضي أيامي أغني و أرقص و أشارك في الحفلات الدينية و حفلات العقيقة و الزواج. و كانت بعض النساء التطوانيات الشابات اللواتي كان أزواجهن منخرطين في جيش الجنوب، يدعوننا لتناول الشاي معهن وقت العصر. كانت ضيفات جديدات يصنعن الحدث. و كان هذا الجو النسائي الجميل يجذب صديقاتنا اللواتي يحضرن "مناديل الحب" المطرزة للواتي وقع عليهن اختيار قلوبهن... تمرر كلمات رقيقة بين لغة الأغاني الشاعرية و الرقصات ذات الحركات الموحية. و في نهاية الأمسية تتكون جماعات صغيرة تربطهم علاقات ظلت بالنسبة لي مبهمة. بعضهن يحكي عن الأحلام التي حققتها صداقتهن و أخريات يتجولن في الحقل و كل منهن تحيط خصر صديقتها بذراعها. كن يرفلن جميعا في قفاطينهن الرائعة، بكل كبرياء. أخريات يتعاهدن على الوفاء تحت الأغصان الكثيفة لشجرة التين العتيقة المزدانة بثمار التين الرائعة. عصير اللوز و الشاي المنعنع ينعش القلوب السعيدة و الأجساد المتعطشة لدفء اللمسات. طبعا لم يكن يسمح للطفلات و الفتيات الصغيرات حضور هذه "الألعاب الممنوعة". و لكن خلف شبابيك النوافذ و حفيف الستائر الحريرية كانت الهمسات و الضحكات المكتومة تضرب أطنابها، في تواطؤ طفولي. يحدث أحيانا أن يسود الحداد منازل بعض القريبات أو الصديقات. لكن الحياة، على العموم، كانت تنساب في هدوء داخل منازلنا. غير أن أخبارا سيئة بدأت تصلنا بعد ذلك بعدة أشهر عن طريق جاراتنا اللواتي عاد أزواجهن جرحى من الجنوب. بعضهن ترمل قبل الإنجاب. بدأت أقلق عن زوجي الذي يوجد أيضا في نفس المنطقة التي يتأجج فيها الصراع.نفس الجارات أخبرنني أن الفقيه مات ميتة مباركة لكونه توفي بمكة المكرمة.
لم تلبث المصائب أن طرقت بابي. لقد أخبرني أحد الجنود الذي جاء في عطلة باعتقال زوجي و مرضه الطويل في طرفاية. و نظرا لعدم العناية، تدهورت صحته، فجاؤوا به إلى المنزل حيث مات متأثرا بجراحه. كانت ابنتي آنذاك في السابعة من عمرها..."
توقفت أمينة عن الكلام. أمسكت رأسها بكلتا يديها و بدأت تنتحب بهدوء. عندما استأنفت حكايتها كانت لهجتها قاسية:
" لم تكن طفلتي إيتري من صلب زوجي. عندما قاموا بغسله بعد الوفاة، أخبروني أن عضوه التناسلي لم يكن عاديا و لا قادرا على الإنجاب. خرج الرجل الذي قام بغسله من الغرفة و هو يحرك رأسه في استغراب و يردد:
- يا لطيف، يا لطيف ! يا له من ذنب ! يا للفضيحة !
انتشر الخبر بسرعة الريح في الحي. أمر أخ زوجي، الذي مرغت كرامته في الوحل بعزلي فورا عن باقي أفراد العائلة. كان علي أن أقضي تسعة و ثلاثين يوما حبيسة غرفتي. و تم إبعاد ابنتي عني. كنت أحيانا اسمع الخادمات ينادين ابنتي متهكمات ب" ابنة الفقيه". آنئذ فهمت كل شيء.حاولت أن أتذكر كل تفاصيل حياتي و كل حركات زوجي.تلك الليالي التي نقضيها مع الفقيه.و ذلك الكسكس بالتوابل. و تمزق أحشائي في تلك الليلة التي حسبتها ليلة الدخلة. تخيلته و هو يلعب مع إيتري و يركبها فوق ظهره. أحسست بالغثيان. كيف استطاع أن يستغلني؟ كنت أدور في حلقة مفرغة وحيدة داخل غرفتي الرطبة. ذات صباح و

قد فاض بي الكيل، رحت أبحث في ركام الأشياء القديمة. عثرت أخيرا و أنا على أعصابي، على بدلة عسكرية لزوجي. بدأت أبحث في جيوبها و في تبطينها عن شيء ما يدحض شكوكي. و كم كانت دهشتي و عنائي عندما اكتشفت في كمها قطعة ورق و صورة ابنتي مغلفة بالبلاستيك... أسرعت أخبؤها في صدري مخافة أن يراها أحد ما، في انتظار أن أعطيها لمن يقرؤها لي.
في اليوم الأربعين بعد موت زوجي، و بعد انتهاء حفل التأبين، قررت العائلة و بالإجماع طردي من المنزل و حرماني من ابنتي. استمر عذابي... كنت أهيم متنقلة من مدينة إلى أخرى، أتسول و أنام في " لفْنادقْ". لم أدر كيف وصلت مدينة ورزازات حيث احتضنتني راهبات إيطاليات و عالجنني و استمعن إلى حكايتي. آنذاك، قرأت لي معلمة شابة هذه الرسالة التي خبأها زوجي..."
و أخرجت أمينة من جيبها ورقة رمادية مجعدة بالكاد تقرأ حروفها.
" ... زوجتي الحبيبة أمينة، سامحيني. لقد أردت أن أسعدك غير أني كنت عاجزا عن ذلك. لقد حرمني الله من نعمته، فلم أكن أملك من الرجولة إلا المظهر. لم أكن أستحقك. كنت أحبك حبا عظيما دون أن أستطيع البوح به لك. لم أكن أجرؤ على النظر في وجهك. فكرامتي، و خاصة خوفي من كلام الناس هو ما دفعني إلى اقتراف هذه الجريمة في حقك. لقد خانتني الشجاعة. و لكن، عندما كنت أحمل " ابنتنا " بين ذراعي خفية، كنت أنسى كل شيء. حاولي، يا حبيبتي الغالية، أن تكوني سعيدة في حياتك. أحبي " طفلتنا" كما أحببتها من أعماق قلبي. الشيء الوحيد الذي أشعر بالندم عليه هو كوني لم أستطع أن أحبك الحب الذي تستحقينه. ليس الخطأ خطأ الفقيه. أنا الذي أرغمته على مساعدتي..."

# ابنة الفقيه

لقد أكدت أمينة هذا العنف المزدوج قائلة: " لقد استعان زوجي بمني الفقيه لينقذ رجولته من العار."

عزيزتي كامليا، لقد روعتني هذه الاعترافات التي نقلتها إلي إيمي زهرة. و ما روعني أكثر، هو ذلك السلوك الدنيء الذي سلكه كل من الزوج والفقيه. لقد تلاعبا بعواطف أمينة و استغلا ثقتها و وظفاها لمصلحتهما دون أن تدري.
في الواقع أنا لم أفاجأ و إنما أشعر بالغثيان. سنوات بعد ذلك، اكتشفت عن طريق نساء عايشتهم تلك اللعبة القذرة التي يمارسها هؤلاء الذين يسمون بالفقيه دون .....تحرج؟ و الذين يستغلون الصلاة من أجل التحرش بالنساء العاقرات اللواتي يدفعهن الخوف من الطرد من بيوتهن إلى الارتماء في أحضانهم، و إلى تجرع مشروبات مصنوعة من البول و شعر العانة و قطع من الثوب مرقدة في المني و في سوائل أخرى لا يعلم مصدرها إلا الله. و منهن من تسحق فصوص الثوم و تخلطها بزيت الزيتون و يعانين الأمرين و هن يدخلن الخليط في أعضائهن التناسلية أملا في تطهيرها. تخضع النساء لكل متطلبات هؤلاء المشعوذين معتقدات أنهن فعلا مسكونات بالجن. يلجأ الفقيه إلى نوع من التنويم

المغناطيسي بحيث يمدد الضحية فوق الفراش، يهمس في أذنها بكلمات متقاطعة، يحركها، يدلك أعضاءها، و ..... في كل اتجاه. أحيانا يستعين بعجوز متواطئة معه ليحضر مجموعة كناوة و يحيي ليلة الجدبة حتى مطلع الفجر. عندما تفجر المرأة كل طاقتها و تكاد يغمى عليها، يستغل الفقيه هذه اللحظة يختلي بها و يغتصبها. تستعيد الضحية ، بالكاد، قوتها معتقدة أنها تطهرت." أكيد أنني كنت مسكونة بالجن الذي كان يمنعني من الإنجاب". تقول في نفسها في هذه اللحظات التي تشعر فيها بالدوار. دور الفقيه في مثل هذه الحالة أن يخرج الجن من جسدها.و بفضل ..... الفقيه، تحلم المرأة بالأولاد الذين لن تتأخر في منحها إياهم لزوجها. آنئذ تهرع إلى الفقيه لتشكره و تجزل له العطاء مقدمة له مبالغ هائلة من المال مصحوبة بالذبائح؟° و الديوك مع حلول كل عيد من الأعياد الدينية".

" بهذه الطريقة ولدت ابنتي إيتري. قالت أمينة بصوت بالكاد يسمع. لقد كانت ثمرة "ليلة اللغز". تلك هي الطريقة التي وقعت بها في فخ ذينك الشخصين الدنيئين. قالت وهي تنتفض من شدة الغضب.
مع الأسف لا زال الكثير من النساء و خاصة من الأطفال الصغار يعانون داخل المدارس القرآنية من نفوذ هؤلاء المتحرشين و المغتصبين الذين يظلون بعيدين عن أيدي العدالة. أولئك المنافقين الذين يقرؤون الآيات القرآنية و هم .... و يقذفون فوق النساء و الأطفال الأبرياء. قولي هذا الكلام لمن حولك يا غيمي زهرة. افضحي أولئك الساديين، المتظاهرين بالورع و التقوى. علينا أن نصون كرامة الأبرياء.
تساءلت إيمي زهرة: لماذا احتفظوا بالطفلة، عندما طردوا أمينة من البيت، رغم أنهم يعلمون جميعا أنها ليست منهم؟
و كجواب على كل التساؤلات تابعت أمينة حكايتها بصعوبة بالغة :
" لقد كانت ابنتي الوريثة الوحيدة للفقيه الذي راكم ثروة هائلة على حساب ضحاياه. عندما أحس بقرب نهايته أراد أن يكفر عن ذنوبه بأن يوصي بثروته للطفلة التي كانت ثمرة الخطيئة. عندما مات زوجي اكتشف أخوه، و هو يبحث في أوراقه، وصية الفقيه الموقعة من طرف عدلين والموثقة في الشهر العقاري. كان العقد يشترط إدخال الطفلة إلى الكتاب لحفظ الستين حزبا من القرآن. لذلك كان عم ابنتي مضطرا إلى تنفيذ الوصية ليتمكن من التصرف في مال إيتري بكل حرية. لقد راهن على هذه "الإرث اللعين" و هو يضطهد ابنتي الصغيرة التي كانت- أينما اتجهت- تجدهم ينعتونني بالأم السيئة و الزوجة ..... لقد عانيت طيلة حياتي من هذه السمعة السيئة الظالمة و التي كانت تعذب ابنتي الحبيبة في طفولتها و مراهقتها."
و بعد صمت طويل و ثقيل، أشارت أمينة إلى إيمي زهرة أن تنحني عليها.
" قصة حياتي كلها توجد في هذا الصندوق. عديني أن تسلميه لابنتي إيتري عندما تصعد روحي إلى السماء حيث تنعم بالهدوء.ستكون طريق ابنتي دائما بيضاء. أشم رائحة دمي حولي. أسمع نداء العدالة يصل أسوار مدينتنا..." أغمضت أمينة عينيها. انسابت دموع فوق خديها لتتلاشى فوق عنقها المجعد. حبست إيمي زهرة أنفاسها و هي تقوم بهدوء و تغادر بهو الحمام على رؤوس أصابعها واضعة "صندوق الأسرار" تحت ذراعها اليمنى.

" يا إلهي، ساعدني على نقل هذه الرسالة النبيلة.لقد كنت دائما أشعر بالعطف و حنان تجاه إيتري. أتمنى أن أكون في مستوى هذه الثقة..."
و بخطى سريعة توجهت إيمي زهرة إلى أقرب مقبرة لتطلق العنان لدموعها و تتأمل الكلام الذي سمعته من أمينة.

**أين يوجد الناس ذوو التفكير الحر ؟**

" عزيزتي كاميليا،
كل هؤلاء النساء يناديننا. أمهاتنا، بناتنا، زميلاتنا، جاراتنا... هؤلاء النساء الموجودات في كل مكان، و اللواتي غالبا ما لا يراهن أحد. النساء المغلوبات على أمرهن و المكممات أفواههن. و مع ذلك فكلهن و أينما كنّ، يتصفن بالحب و بنكران الذات. و أنت واحدة منهن. لقد دعوتني رغما عنك و لجأت إليّ ضمن آخر من لجأت إليهم..... إلى مرافقتك مسافة معينة من الطريق.
لقد دقت الساعة يا كاميليا. استعدي للتحرر من الماضي القاسي الذي يعكر صفو لياليك. تقبلي مع إيتري خطاب "صندوق الأسرار" الذي قدمته أمينة. أينما ذهبت، حدثي أخواتك المنسيات، المغرر بهن، المعجونات حسب الأهواء، المتواجدات وراء جدران تلك القلاع التي تدين الأبرياء دونما خجل.
من أجلك عزيزتي، أسجل آثار هؤلاء النساء عبر قنوات الحوار."

استيقظت حياة هذا الصباح، و دون أن تفتح عينيها، وضعت قدميها بحذر شديد فوق زربية برتقالية اللون ثم فوق زربية أخرى صفراء. ألق ألوان الربيع الذي تحس به في انتظارها، جعل حلمتي ثدييها تنتصبان. وضعت بكل حب، يدها اليمنى فوق بطنها. أحست بحرارة جسدها و خفقانه. نعومة جسدها نداء لرفيقها. عطره دعوة للتجديد. هذيانها فضاءات متناثرة؟.....حيث القوانين و القيم .....الكلمة. تراءت لعينيها المغمضتين، ملامح الرجل الذي يسكن حياتها. فجأة، أحست به يجلس إلى جانبها على حافة أحد كثبان الرمال المواجهة للمحيط الأطلسي. ظلت تتابعه بنظراتها و هو يطير نحو الش..... أدخلت أصابعها بعمق في الرمل. صاحت به في صمت: " يا حارسي الأبدي، افتح لي مملكة إلهامك. اشملني و إلى الأبد، برقتك. غذيني بحرارتك. لف جسدي بتطلعك إلى السماوات المرصعة بالنجوم."
أ هذا حلم أم حقيقة ؟ هيئ لحياة أنها تسمع صوت رفيقها يجيبها عبر خفق أجنحة الطيور المحلقة في السماء، و أنفاس النسيم، متماوجا مع البحر و الرياح التي تعيد صداه إليها.
إن ربيعي خالد و أبدي ما دام يتغذى من انطلاقتنا الجديدة. ألوانه، الخفية عن الآخرين، تتألق من أجل تجربة العمر.....أه، يا حياتي. إني أرى مفاتيح نجاحي منحوتة على كل تعبير من تعابير قسمات وجهك. كل محنة تقربني منك أكثر. كل اعتراف منك يجري في دمي، ينعش حماسي و يجعل السكينة تسود قلبي.

بكل هدوء، راحت حياة تردد أنشودتها للفضاءات المحيطة ، و لعيد خريفها المقبل، ما وراء قصبات الأجداد :

" بتوحد كل القلوب و كل اللهجات
سنصارع من أجل التفاهم
سنحتفي بواقع الناس البسطاء
و ننقذ الأفعال النبيلة
سنكون سلسلة مع .....
و نحن نعمل داخل الاختلاف
و نمحو كل الحدود"

يرد الرفيق عليها، و هو ينظر إلى.....
يقول لها و هي هناك محتمية بمملكة جذورها، مثل ما قال يوم اللقاء الأول:

ابنك، ابني ،
سيكون جلده بألوان مختلفة
وشعره بأنسجة متعددة
و صوته برنات عديدة
سيكون قلبه....من التسامح
للهويات المجتمعة.

و يتمازج الصوتان في مكان ما من الفضاء. يتسربان إلى أوراق الأزهار، و يرويان الأرض العطشى. كانت حياة متألقة و هي تفتح عينيها. قبلت نسمة الصباح الأولى التي تعد بجو جميل هذا اليوم. ضمت طيف حبيبها إلى صدرها لحظة، ثم حررته و هي تفتح عينيها جيدا. عادت تستأنف حياتها اليومية العادية. بقايا الفطور متناثرة فوق المائدة. الأوراق متناثرة فوق المكتب. القطة البيضاء تتمدد تحت أشعة الشمس. منذ ذهاب الأولاد و حياة تقضي نهاية الأسبوع وحيدة. تشعر و كأن دهرا من الزمن مر على ذلك. عندما عادت من جولتها عبر الجبال، صاحت: " يا إلهي، هذا هو الوقت."
دست قدميها في نعل من جلد الماعز. أطفأت النور و أغلقت الباب وراءها بلطف، و هي تضع محفظتها البنية تحت إبطها. تعتبر حياة الساعات الطويلة التي تقضيها في محاورة فتيات هذه القرية المنسية لحظات فريدة في حياتها. تعجب بعفويتهن و تشعر في حضورهن بأنها أخيرا، تعيش حياتها. سألتها إحداهن قائلة:

- سيدتي حياة، أتمنى أن أتجول فوق رمال شاطئ القرية دون الشعور بأية مضايقات، و أن أتنقل بكل حرية في أرجاء هذه المنطقة. احكي لنا من فضلك، عن ثقافة "حكمائنا"، أولئك الذين بعثوا لنا "بشفرة المجهود" حتى نهتم به و نحسن أداءه. أنت أملنا الوحيد. ليتنا توحدنا مع تلك الشعوب ذات التفكير الحر ! "

أغمضت حياة عينيها. أغلقت مذكرتها وأعادت قلمها إلى مكانه، فقامت القرويات بشكل فوضوي، و غبن عن أنظارها. هيئ لها أنها سمعت إحداهن تهمس في أذنها:" أنا في انتظار حظي. ستكون نجمتي متميزة. سأقضي الليالي في

انتظارها. أريد أن أكون فقيرة على أن أكون حرة في تفكيري و في جسدي لأجتاز ذات يوم، مياه جبل طارق الزرقاء."
...سوكو الصغير سنة 2000 ...هل هو كابوس أم ثقب أسود؟ حمى على إثر نزلة برد قوية.كانت حياة تهيم في الساحة الكبيرة للمدينة. أزاحت بعنف من طريقها، أحد المارة الذي كان يحاول وقاحة ملامسة صدرها. انساقت لحالة غضب شديد و هي تشير بإصبعها للرجل الملتف في جلبابه، أمام أنظار المارة المشدوهين.
"هذا ما تستحقينه أيتها المومس." قال أحد الملتحين. أحست حياة بالرعب. ترفض هذه النظرات الجائعة، و هذه الأفكار اللئيمة و هذا التحرش اللفظي اليومي. ترفض أن تحب من جديد في ظل هذه القواعد المتدهورة التي تجعل من المرأة بضاعة يجب إغلاق الباب عليها. لقد اكتشفت عبر مسارها الشخصي النزعة الحيوانية الذكورية المختبئة وراء ستار الوعظ و السلوك المطبوع بالنفاق. لقد نالت نصيبها، مثل كاميليا، من انكسار الأوهام. كانت غالبا ما تجد كلمات الثقة و الوفاء من حولها، مجرد كلمات فارغة من أي محتوى. لقد أحست بالخيانة، و بأن حريتها في أن تكون و أن تتحرك عبر حدود العالم، قد سرقت منها. فجأة، اقتحم نفس الشبح غرفتها. يطاردها بدون هوادة.قفزت من مكانها و تراجعت ببضع خطوات قبل أن تطلق، بتلك اللهجة الواثقة التي تميزها، في اتجاه الشبح الضبابي الدي يحوم حولها:
لا. لست امرأة هامشية، و لا متمردة ! أنا مجرد امرأة بقلب و عواطف متأججة.ابحث عن الصدق. هيا اذهبوا، لقد سئمت من مهازلكم و من لبداتكم التي تحملونها و أنتم ذاهبون لأداء صلاة الجمعة قبل مواعيدكم الأسبوعية، ما بين الرابعة و السادسة مساء، مع تلميذات الثانوي في خلفيات دكاكين العمارات الخاصة بالمكاتب. أكره هذا التحرش الفج المتستر وراء مظاهر من التقوى لم تعد تخدع أحدا. ترددت حياة لحظة، ثم انطلقت في حزم، داخل ممر من الضوء تاركة الشبح يتلاشى وراءها في الظلام...
استفاقت و هي تشعر بالألم.
أحيانا تتذكر حياة لقاءها الأول برفيق حياتها هناك، فوق تلك الضفة الزرقاء. بعد سنوات عديدة من الحياة المشتركة، ترغب في تفاهم يجعلها تتألق خارج نطاق الجسد و لهيبه، تفاهم في إطار المحبة و الحوار. لذا، كانت عندما يغمر جسدها بلمساته، تعطيه خدها قائلة: " لقد أحببتك بدون شروط، فمنحتني نفسا خالدا يقود خطواتي نحو حياتي الجديدة التي تغذيها الأفعال الحرة المدروسة."
آنئذ، و مثلما كان يفعل في بداية علاقتهما، يحاول أن يجعل حبه أكثر قوة. حب النساء الملتهبات.....، لكنها تنفصل عنه بهدوء، و تطبع قبلة فوق عنقه و هي تمرر أصابعها فوق شعره الحريري قائلة: " لقد غمرتني يا حبيبي، بحنانك. أقدر فيك كرم عواطفك و حضورك إلى جانبي. إنهما عزائي الوحيد. فأنا اليوم أكثر من صديقة لك. أريد أن أكون شفافة بين يديك، لذا، لا يمكنني أن أكذب عليك. انتظرني ...!"

## حكاية صندوق الأسرار

تبدأ الحكاية كل ليلة، مثل حلم. تخيلوا ضوءا لطيفا يخترق ضبابا يرتفع نحو السماء. أشعة وردية مصحوبة بهواء منعش تداعب الزرابي المنسوجة بخيوط

الذهب. ثم يأتي صباح لا يشبه أي صباح آخر حيث المرأة- الذاكرة الشاهدة على حكايات مؤلمة عديدة مستمدة من واقع الحياة. كم يلزمها من الوقت لنسيان مرحلة الشباب المضطربة التي مرت بها إيتري؟ و الجسد المشوه لكاميليا؟ و حلم إيمي زهرة المحطم ؟ و الاغتصاب المقنع لأمينة؟ لنسأل السماء التي تغطى البحر الأزرق و كثبان الرمال. قد تتمكن هذه الفتاة السمراء ذات العيون السوداء و الهيئة الصارمة من تحرير أفواه كل النساء المكممات... بعض المؤشرات توحي بأن خيطا رفيعا يقرب من الآن فصاعدا، الفتاة من الحقيقة.
الذاكرة: أيتها الفتاة، من أين أتيت؟

إيتري: في بلادي يسمونني نجمة. أعود من الحج و أتوجه نحو الريساني. عرابتي امرأة كتومة، تذهب في شهر نوفمبر من كل سنة إلى الجنوب. ذات يوم نادتني قائلة: " ابنتي إيتري، اذهبي إلى مرزوكة حيث ينتظرك رجال زرق. حييهم بوضع يدك فوق صدرك، و اتبعي خطاهم. ستنامون هناك، وستذهبون إليها مع طلوع الفجر و في برده القارس. المرأة تنتظرك هناك. دوسي بقدميك الرمال الندية،و تنفسي بعمق هواءها. ستشير إليك مضيئة لك وحدك. ثم أنصتي إلى كلامها و أنت تنظرين أمامك. آنئذ، سيمر شريط حياتها أمام عينيك. كنت بالنسبة لها أكثر من ابنتها. لقد تركت لك رسالة. انتظرتك المرأة زمنا طويلا، فلتذهبي الآن إليها.

الذاكرة: هل تخافين على أيامك؟
إيتري: لا. فذاك قدري.
الذاكرة: آه، إنه ألمك !
إيتري: لم أكن أتألم. ذلك أن من تحميني علمتني معنى المحن. قبل ذهابي قالت لي: " سترين أمام أقدامه طائرة، عندئذ، فكري في أقوال "الأمير الصغير"، فأنت"نجمة مرزوكة الخالدة !".

هكذا أصبح لقاء المرأة ضرورة ملحة. توغلت سيارة اللاندروفر في الظلام الحالك.تذكرت إيتري كلام حاميتها: ستنتظرك كل شهر من أشهر نوفمبر. لا تتأخري عن أي موعد، لأنك ستشقين طريق الواجب للشبان آخرين.حكايتك كونية.فهي تقريبا حكاية كل النساء المقهورات، النساء السجينات في الكذب الممنهج. كوني يا ابنتي، قوية رغم المخاطر، لأن المستقبل ملك لأمثالك."
ثارت غيتري لهذا الكلام.لاحظت و هي تغفو نصف غغفاءة، أن رفقاءها يلبسون زيا مختلفا عن زيها، و فهمت من حركات شفاههم أنهم يصلون. لكن، عندما استيقظت تماما، استطاعت أن ترى في ظلام الذي يسود قبة الولي الصالح، بأن أيديهم اليمنى كلها خضراء.

تم صعود الكثب الكبير ببطء. أحست غيتري بقلبها يدق بعنف. بالقرب منها أنفاس دافئة تفوح منها رائحة العود و القرنفل، جعلت القشعريرة تسري في جسدها. فجأة، راتها. رأت في البداية وجهها. ثم بدأ جسدها ذو اللون الرملي، يظهر تدريجيا ملفوفا في "دفينة" وردية شفافة. اقتربت المرأة من إيتري و وضعت في

يدها يدا صغيرة من ذهب.تعرفت إيتري على اليد التي تشبه اليد التي تضعها دائما في عنقها.وضعتها إيتري في كف يدها التي أصبحت خضراء.
قالت المرأة: ابنتي، لقد جئتني حتى هنا، لذا اسمعيني جيدا. لقد أحببتك عبر العصور ة الحضارات.فأنت ذاكرتي التي لا شيء يستطيع محوها. انصتي إلى حكاية أمك - المرأة المجروحة، و المحافظة مع ذلك على كرامتها- و هي تسعى لجمع أبنائها. كل حبة رمل تدوسينها تحكي قصتي. تعلمي كيف تنصتي، ثم امش مرفوعة الرأس يا ابنتي. هذا هو ثمن النضج. احتفظي بقليل من الرمل لتزرعيه حيثما توقفت أمام وجه أخوي تتعرفين عليه عن طريق يده الخضراء. ذات يوم، سيتقدم إليك في صورة امرأة عجوز تحمل "صندوق الأسرار". ستجدين فيه آنذاك، كنزا يسعد حياتك.
... أغمضت إيتري عينيها.
بينما كانت المرأة تكشف لها عن بعض خفايا حياتها، أحست إيتري بقدميها تغوصان في الرمال الناعمة و بحبات الرمل تنفصل عن بعضها بلطف. غاصت في عتمة دافئة. أنغام من الموسيقى الأندلسية تغمر متاهات الدهاليز المفروشة بالزرابي التي تنطلق منها جمال صغيرة تخرج الواحد تلو الآخر، متبوعة بأياد صغيرة موشومة تصفق لموكب من حيوانات ما قبل التاريخ. كان التجمع في ساحة كبيرة ترفرف فيها أعلام العالم كله. انطلق احتفال موسم الأخوة. أرادت إيتري أن تتبع الموكب، غير أن قوة ما جعلتها تتسمر في مكانها. سرت بجسدها رعشة و هي تسمع ضحكة طفل صغير. ثم دعاها صوت عذب إلى مواصلة طريقها، عبر باب جميل من النحاس المتلألئ أنفتح أمامها. عندئذ اكتشفت خمس حدائق رائعة متعانقة جنب كثيب تحرسه أفاعي الكوبرا تحت سماء مذهبة. تذكرت إيتري المخاطر التي حدثها عنها حاميتها، جلست و هي تحس بالارتباك.
فجأة، أبصرت فوق شجرة أركان أكثر خضرة و علوا من غيرها، امرأة عجوزا بلون.... تكلم نفسها و هي تجر خيط إبرة فوق عطاء عريض.ما بين أصابعها الرشيقة البيضاء بياض الحليب، تبزغ نجوم و صلبان و أهلة متلألئة. انبهرت إيتري بمهارة هذه الصانعة الآتية من زمن آخر، التي لا تتوقف عن كلامها المتقاطع المبهم. توقفت فجأة، كل النجوم و الصلبان و الأهلة عن اللمعان، فرفعت المرأة رأسها نحو إيتري و هي تهدهد بين ذراعيها صندوقا فضيا صغيرا. في لمح البصر، تعرفت إيتري على وجه إيمي زهرة، فانتفضت في مكانها. خاطبتها نساجة تيزرو قائلة:

- إيتري، إن إصرارك يعيد إلينا اليوم كرامتنا. و عودتك إلينا تنير ركنا من قلوبنا ظل مظلما زمنا طويلا. بفضلك نعرف اليوم، أن لكل تضحية ثمنها. نحن مدينات لك ب.... لقد توصلنا من أمك "بصندوق الأسرار". الكثيب الكبير ينتمي دائما إلى جماعتك. لا شيء.... فالذاكرة تحرسه. الحدود التي كانت تفصل أمك عن موطنها قد تلاشت. يسعدنا أن نرى اليوم، الرجال يضمون الأطفال إلى صدورهم و النساء يمسحن دموعهن الحارة. الشراهة تعمي يا ابنتي. اجلسي، و انصتي إليّ. ستصبح كلمة المرأة مسموعة في نهاية المطاف، و ستعبر آفاق العالم الشاسعة و حدوده.

" ... منذ زمن بعيد، كان الناس يعيشون مع بعضهم البعض في منازل كبيرة، و يقضون عطلهم في الحدائق على ضفاف الوديان و هم يشربون الشاي و يأكلون

الحلويات المعسلة. كانت النساء تطبخ البغرير فوق الكانون تحت ظلال أشجار البرتقال و الرمان، و الرجال يديرون سفافيد الشواء و هم يرددون أغاني الملحون. و الأطفال يمرحون فوق الضفاف الخضراء. تغمر البادية المدن بروائح أزهارها الفواحة، فتولد الأخوة بين الناس. لكن مع الأسف، يحاول أشخاص.... أن يزرعوا الشر في طريق الحوار. و أنت و أمثالك يا إيتري، من عليهم أن يوقفوا هذه الكارثة و يجعلوا صوت الحكمة ينتصر في النهاية."

في هذه اللحظة، بدأت نجمة ترقص حول وجه إيمي زهرة، ثم توقفت فوق جبينها. و بصوت متأثر، قالت المرأة: " إن أمك يا ابنتي ترضي عليك، من المكان الذي توجد به حاليا."

ما إن أكملت عبارتها هذه، حتى عاد وجه إيمي زهرة وجها لا عمر له، و عاد يحتل مكانه في الغطاء العريض المرصع بالنجوم و الأهلة و الصلبان المتلألئة. انغلق الصندوق، ففتحت إيتري عينيها. آنئذ رأت أفاعي الكوبرا تتحول إلى صف من الأطفال يغنون و يرقصون و يجذبون إيتري إليهم قائلين: " هيا إتري، تعالي معنا. ستزهر الحدائق الخمسة من جديد. إنك جزء من .... هذا القرن. أمك تؤمن بك، و نحن جميعا نعرفها. كانت تناضل ضد الظلم و عدم التسامح، و تواصل سعيها الأبدي نحو الوفاق..."

و دخل الأطفال الحدائق الخمسة غارقين في قفاطينهم ...والتيجان تزين رؤوسهم. سقوا حديقة الكواكب....؟ و داعبوا حديقة القلوب و زرعوا الياسمين في الحدائق الثلاثة الأخرى. تراجعت إيتري إلى الوراء، باحثة عن الصندوق و عن صوت إيمي زهرة المهدئ.

فجأة، أحست أن ضوءا يبتلعها، فإذا بها تجد نفسها أمام غزالة تشع نظرتها بالأنفة. دعتها إلى الجلوس قرب بركة من ماء الورد يطفو فوقها الصندوق الصغير. خرجت منه حمامة بيضاء. حملت هذه الحمامة الصندوق و وضعته أمام قدميها. ما إن فتحته إيتري، حتى تحولت الحمامة إلى شاب يلبس سبعة أزياء كتبت عليها أقاليم بلادها. كل زي من الأزياء السبعة يصاحبه نوع من أنواع الموسيقى التقليدية. ابتعدت الموسيقى فظهر الشاب بلباس الجينز، و إذا بالصندوق الصغير يتحول إلى طائرة بوينغ747 . تركت الحدائق الخمسة مكانها لكثبان رمال قريبة، بعضها أجمل من البعض الآخر: تينفو، أيت أوبلي، مرزوكة...

عندئذ، قال الشاب لإيتري:

" إيتري يا صديقتي، أعرف أنك جئتِ بحثا عن الحقيقة. لقد كانت أمك تسير في طريق المصالحة، محمولة فوق أجنحة الأمل. وانتهي سفرها هنا، فوق آثار التجديد. لقد حمتك أمك حتى آخر رمق في حياتها، و ها أنت الآن تطئين تراب أهلك. و أنا أخوك الذي تربطك به حبات رمال أسلافنا. سأكون بجانبك إذا ما رغبت في ذلك. خذيني خارج هوة الجهل و اطردي الأشباح المتوحشة التي تطاردني. خذي يدي يا إيتري، انظري إليها. إنها خضراء.

تشابكت اليدان. بدأت إيتري تزرع حبات الرمل و هي تسير إلى جانب الرجل الذي قررت أن تطلق عليه اسم سليم. قالت للريح و للشمس و لكثبان الرمال و لكل من يستوطنها: "احملوا أصواتنا إلى كل الرجال و كل نساء القرى و المدن. سليم، سلامة، سلمى، السلام عليكم جميعا. و لتزهر كل حبة رمل، و تتفتح نجمة لكل طفل من أطفال العالم..."

ابتعدت إتيري تبتعد أكثر فأكثر، يحملها ريح الشرق الربيعي. ها هي تغادر – وحيدة و رأسها يغلي - الراشدية، غابة النخيل، مملكتها الأخرى. تعبر الشعاب الخضراء لداداس و تودرا التي ترويها الثلوج و هي تموت بدمائها على عتبة القصور الشامخة. ترافقها في مسيرتها ضحكات تنبعث من هنا و هناك، و أغاني ترددها بعض النساء، و أصوات أطفال سعداء. تغيب عن أنظارها أرفود و الريش. و من اسكورة و تينغير و قلعة مكونة تنطلق موسيقى تبعث فيها الحنين، يحملها موكب الورود المتألقة إلى أعماقها التائهة.
طال الوقت. تدفقت الذكريات.

- يا إلهي، كم كان الوقت طويلا للوصول إلى الحقيقة، امّيمة !

## خاتمة

كاميليا، لقد حاولت معي أنا أيضا يا ابنتي، وعود كثيرة و ابتسامات منافقة أن تثنيني عن تفكيري. و مع مرور الزمن، تعلمت كيف أتعرف عليها في أوج نفاقها، فالحياة تستحق منا ذلك. تسلحت بالصبر، إلى أن جاء اليوم الذي تحقق فيه اللقاء مع الرجل صاحب الكلمة، الرفيق الذي طالما انتظرته ! تعرفت عليه في الحين. كانت يمّا لالا قد نقلت إليّ تلك القوة الهادئة التي يمتلكها شيوخنا بالشمال، و ذلك عبر حكمة أقوالها:

" حياة، يا ابنتي، رغم أشواك المحنة، فإن طريقك سيظل ناصعا، لأنك عندما فقدت سذاجتك عرفت كيف تحافظين على كرامتك كامرأة مسؤولة. جنون المقاومة الذي يسكنك جعلك تسمين يا ابنتي. ارفعي رأسك اليوم، و أنت بجانب الرجل الذي سيصبح الرفيق الحقيقي لحياتك. ستكشف لك نظرته ذلك الجانب الذي تخفينه بداخلك. سيقف في البداية مقابلا لك، ثم إلى جانبك و لكن، لن يكون أبدا أمامك. لقد أدت النساء اللواتي سبقنك، ما يكفي من المهانة، كي تصبحين حرة. نعم، حرة في تفكيرك و في حياتك. وداعا يا ابنتي."

كاميليا، أضم صوتي إلى صوت يمّا لالا لأقول لك: " أنت أيضا خرجت عن النظام السائد. لقد تصرفت عن جهل لا عن نزوة. و أنا حاولت أن أكون – قدر المستطاع - قريبة منك عن طريق الكلمات، و إن كانت هذه الكلمات خالية من أي معنى لكونها لم تأتيك سريعا بالحرية. لقد كانت كلماتي دائما مليئة بالعجز أمام مأساتك. كاميليا، لقد حطمتِ يا ابنتي، حلقة في سلسلة الفساد، حتى و لو كانت هذه الحلقة صغيرة و بدون أهمية تذكر.لا شك أن السلسلة منذ ذلك الحين، قد تأسست من جديد. و ستقولين: ما قيمة فتاة صغيرة من حي شعبي أمام أشخاص ... يحترفون التهريب؟ وجودك في السجن يخدم كل هذه ...

المتعفنة حتى النخاع و التي احتككت بها رغم أنفك. و مع ذلك فقد تكلمنا جميعا، و حاولنا أن نرمي حجارة في بركتهم الآسنة !"